كتابك

د . محمد حسين الذهبى

عِلمُ التفسير

كتابك (٩)

رئيس التحرير: أنيس منصور

د. محمد حسين الذهبى

علم التفسير

دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم البحث

الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا . والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد عبد الله ورسوله الذى أكرمه ربه بكتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . تنزيل من حكيم حميد . وبعد :

فهذا مختصر موجز للتعريف بعلم التفسير . بينت فيه حقيقة علم التفسير ومراحله التى مرّ بها . واتجاهاته التى اتجه إليها . والعوامل التى اثرت فيه وخرجت به عن مساره السوى إلى مسار تشعبت سبله . فكان– إلى حوار المقبول منه– ما هو مرفوض لا يقره عقل ولا يقبله شرع . ووضعت المنهج السليم لمن يريد أن يفسر كتاب الله حتى لا تزيغ به الأهواء . وذكرت شرائط التفسير التى لابد من توافرها فى كل من يتعرض لتفسير كتاب الله حتى لا يزلّ ولا يضل . ونبهت إلى بعض كتب التفسير وما فيها من زيف حتى لا يغتر بها غافل .

والله أرجو أن يوفقنا لخدمة كتابه وأن يلهمنا الرشاد والسداد فى أمرنا كله . والحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله .

دكتور محمد حسين الذهبى

علم التفسير

المفهوم اللغوى لكلمة: التفسير :

يطلق لفظ (التفسير) فى اللغة العربية ويراد منه : الإيضاح والتبيين ، وقد ورد اللفظ بهذا المعنى فى القرآن الكريم فى قوله تعالى : «وَلاَ يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَق وأَحْسَنَ تَفْسِيرًا»(١) أى وأحسن بيانا وتفصيلا .

والكلمة فى أصل اشتقاقها مأخوذة من (الفَسْرِ) بمعنى الإبانة والكشف :

قال فى القاموس : الفَسْر : الإبانة وكشف المغطى .

وقال فى لسان العرب : الفَسْرَ : البيان... والتفسير مثله... ثم قال : الفَسْرَ : كشف المغطّى . والتفسير : كشف المراد من اللفظ المشكل .

ومن هذا الذى تقدم يتبين لنا أن التفسير يستعمل -لغة- فى الكشف الحسى ؛ كما يستعمل فى الكشف عن المعانى ، واستعماله فى الأخير أكثر من استعماله فى الأول .

(١) سورة الفرقان الآية ٣٣

المفهوم الاصطلاحى لكلمة التفسير :

وكلمة التفسير تطلق فى اصطلاح علماء التفسير والمعنيين به - على العلم الذى يفهم به كتاب الله المنزل على نبيه محمد ﷺ ، وبيان معانيه . واستخراج أحكامه وحِكَمِه ... هكذا عرفه الزركشى كما نقله عنه صاحب الإتقان (١) .

وهناك تعاريف أخرى للتفسير نقلها صاحب الإتقان هو وغيره عن بعض علماء التفسير . وكلها تدور على أن التفسير : علم يبحث عن مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية ، فهو شامل لكل ما يتوقف عليه فهم المعنى وبيان المراد .

التأويل والفرق بينه وبين التفسير :

وكان لزاما على علماء التفسير والمعنيين به وبعلومه أن يعرضوا لمعنى كلمة (التأويل) كما عرضوا لمعنى كلمة (التفسير) ؛ لأن كلا اللفظين ورد على لسان المفسرين وفى كتبهم .

وكان لزاما عليهم - أيضا - أن يفرقوا بين اللفظين فى مصطلحهم إن كان هناك فرق . أو أن يبينوا لنا ترادفهما . إن كانا مترادفين يراد بهما شىء واحد .

ونوضح هذه القضية فى كثير من الإيجاز فنقول :

(١) الإتقان ج ٢ ص ١٧٤ ط : الحلبى سنة ١٩٣٥

المفهوم اللغوى لكلمة التأويل :

التأويل - فى اللغة - مأخوذ من الأول وهو الرجوع : قال فى القاموس : آل إليه أَوْلاً ومآلا : رجع ، وعنه : ارتدّ ... ثم قال : وأوَّلَ الكلام وتأوله : دبّره . وقدّره وفسّره .

المفهوم الاصطلاحى لكلمة التأويل :

وكلمة التأويل تطلق عند علماء السلف ويراد بها : تفسير الكلام وبيان معناه سواء أكان موافقا للظاهر أم مخالفا له . فيكون التأويل والتفسير على هذا مترادفين . وهذا هو ما يعنيه ابن جرير الطبرى بقوله فى تفسيره : «القول فى تأويل قوله تعالى .. كذا وكذا» . وهو ما يعنيه - أيضا - بقوله : «اختلف أهل التأويل فى هذه الآية» .

وتطلق كلمة التأويل عند علماء السلف - أيضا - على نفس المراد بالكلام : فإن كان الكلام طلبا كان تأويله نفس الفعل المطلوب . وإن كان خبرا كان تأويله نفس الشىء المخبر به .

وعلى هذا فالتأويل والتفسير أمران متباينان .

وتطلق كلمة التأويل عند المتأخرين من الفقهاء والمتكلمين والمحدِّثين على صرف اللفظ عن معناه الراجح إلى المعنى المرجوح لدليل يقترن به .

وعلى هذا فالتفسير أعم من التأويل ... هذا وقد نقل صاحب

الإتقان (١) عن بعض العلماء : «أن التفسير ما يتعلق بالرواية ، والتأويل ما يتعلق بالدراية ؛ وعلى هذا فهما متباينان .

وهذا الرأى الأخير نقله الزركشى فى كتابه البرهان (٢) عن أبى نصر القشيرى حيث قال ما نصه :

«قال أبو نصر القشيرى : ويعتبر فى التفسير الاتباع والسماع ؛ وإنما الاستنباط ما يتعلق بالتأويل» .

وبعد : فالذى نرتضيه من بين ما ذكرناه وما لم نذكره فى هذه القضية هو : أن التفسير ما كان راجعا إلى الرواية . والتأويل ما كان راجعا إلى الدراية ؛ وذلك لأن التفسير معناه : الكشف والبيان . والكشف عن مراد الله تعالى لا يكون إلا بالنقل الصحيح عن رسول الله ﷺ . أو عن بعض أصحابه الذين شهدوا نزول الوحى . وعلموا ما أحاط به من حوادث ووقائع . وخالطوا رسول الله ﷺ ورجعوا إليه فيما أشكل عليهم من معانى القرآن الكريم .

وأما التأويل فملحوظ فيه ترجيح أحد محتملات اللفظ بالدليل ، والترجيح يعتمد على الاجتهاد ، وَيَتَوَصَّل إليه بمعرفة مفردات الألفاظ ومدلولاتها فى لغة العرب . واستعمالها بحسب السياق ، ومعرفة الأساليب العربية ، واستنباط المعانى من كل ذلك .

---

(١) الإتقان ج ٢ ص ١٧٣ .

(٢) الإتقان ج ٢ ص ٢٥٠ ط : عيسى الحلبى سنة ١٩٥٧ .

أهمية علم التفسير ، ومبلغ عناية المسلمين به

وعلم التفسير يعتبر – بحق – أرفع العلوم الإسلامية قدرا . وأعلاها شأنا . دونه كل علم من العلوم الإسلامية على اختلاف أنواعها وتنوع مقاصدها . وتلك حقيقة برهانها قائم . لا ينكره إلا من ينكر ضوء الشمس .

فموضوع علم التفسير : كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . تنزيل من حكيم حميد . وكل العلوم فى شرف خدمته . وما من علم منها إلاّ وهو وسيلة من وسائل توضيح معانيه . وتجلية مقاصده ومراميه : فعلوم البلاغة : وسيلة إلى الكشف عن بلاغة القرآن الكريم وسر إعجازه . وعلم الفقه وأصوله : وسيلة إلى الكشف عن تشريعاته وأحكامه ؛ وعلم النحو والصرف : كلاهما وسيلة إلى ضبط ألفاظه وفهم معانيه ؛ وعلم الكلام والجدل : وسيلة إلى تجلية عقائده ومساندتها بالأدلة الساطعة والبراهين القاطعة ؛ والعلوم الكونية والطبيعية : وسيلة إلى الكشف عمّا أودعه الله كتابه واسترعى إليه أنظار عباده من دلائل قدرته وأسرار ملكوته . وعجائب مخلوقاته التى بثها فى الأنفس والآفاق . . . . وهكذا بقية العلوم – مهما كثرت وعلا شأنها – كلها مسخرة لخدمة القرآن الكريم . ولا عجب . فهو كتاب رب العالمين «كتاب أحكمت آياته ثم

فصلت من لدن حكيم خبير» (١) .

ومن هنا كانت عناية المسلمين بتفسير القرآن الكريم والكشف عن معانيه عناية دونها كل عناية بذلت بالنسبة لأيٍ من العلوم الإسلامية ، بل غير الإسلامية ، ولم تكن هذه العناية البالغة بنت الأمس القريب أو البعيد . بل هى بنت الأمس الموغل فى البعد ؛ لأنها ولدت منذ الساعة الأولى من نزول القرآن الكريم ؛ فقد كان القرآن فى أول أمره ينزل به جبريل عليه السلام على رسول الله ﷺ يقرأ جبريل عليه السلام ، فيبادر النبى ﷺ إلى أخذه ، ويسابق المَلَك فى قراءته ؛ فأمره الله – عز وجل – إذا جاءه الملك بالوحى أن يستمع له . وتكفّل الله له : أن يجمعه فى صدره . وأن ييسره لأدائه على الوجه الذى ألقاه إليه ، وأن يفسره له ويبينه . ويوضحه : وفى ذلك يقول الله تعالى موجها الخطاب لنبيه عليه الصلاة والسلام : « لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ . إنّ عَلَيْنَا جَمْعَه وَقرْآنَه . فَإِذَا قَرَأنَاه فَاتّبعْ قرْآنَه . ثمّ إنّ عَلَيْنَا بَيَانَه » (القيامة : ١٦ – ١٩) . ضمن له الحفظ . وضمن له قراءته كما قرأه جبريل ، ثم ضمن له بيان معانيه .

ولم يقف أمر بيان معانى القرآن الكريم عند رسول الله ﷺ وحده ، بل تعداه – من أول الأمر أيضا – إلى صحابته رضوان الله عليهم أجمعين ؛ فقد أمر الله رسوله ﷺ أن يبين للناس ما نزّل إليه ، فقال عزّ

(١) سورة هود – الآية ١ .

من قائل : « وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتبَيِّنَ لِلنّاسِ مَا نزلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلّهمْ يَتفكّرونَ » (١) .

ولم يقف القرآن عند هذا الحدّ . بل تعداه إلى دعوة الأمة إلى التدبر فى آياته والبحث عن معانيه بقوله سبحانه : « كِتَاب أَنْزَلْنَاه إِليكَ مُبَارَك لِيَدّبّروا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكّرَ أولو الأَلْبَابِ » (٢) وقوله بأسلوب التبكيت لمن أعرضوا عن ذكره : « أفلا يَتَدبرونَ القرآنَ أمْ علَى قلوبٍ أقفَالها » (٣) . ولقد حرص أصحاب رسول الله ﷺ على أن يعرفوا معانى ما يحفظون من القرآن أولاً فأولا : روى ابن جرير الطبرى بسنده عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : «كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن » (٤) .

وروى ابن جرير أيضا بسنده إلى أبى عبدالرحمن السّلَمى قال : «حدثنا الذين كانوا يقرئوننا : أنهم كانوا يستقرئون من النبى ﷺ . فكانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يخلفوها حتى يعلموا ما فيها من العمل . فتعلمنا القرآن والعمل جميعا » (٥) .

(١) سورة النحل الآية ٤٤

(٢) سورة ص – الآية – ٢٩

(٣) سورة محمد الآية ٢٤

(٤) تفسير ابن جرير ج ١ ص ٤٦ .

(٥) المرجع السابق ج ٢ ص ٢٧

مراحل التفسير وتدرجه فيها

بدأت عناية المسلمين بتفسير القرآن الكريم والكشف عن معانيه وأسراره من أول نزوله على رسول الله ﷺ -كما بينا آنفا- واستمرت هذه العناية إلى يومنا هذا . وستبقى مستمرة ما دام القرآن الكريم . وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

غير أن معالجة المسلمين للكشف عن معانى القرآن الكريم لم تَجْرِ على نمط واحد . ولم تكن فى مستوى واحد من الفهم والإدراك . وتلك طبيعة الحياة فى كل كائن حىّ (حياة حسية أو معنوية) ؛ ومن هنا لم يكن بدعا أن نرى تفسير القرآن يمر بمراحل مختلفة يتدرج فيها تدرج الكائن الحى : يبدأ شيئا صغيرا . ثم ينمو شيئا فشيئا حتى يبلغ أشده . ويصل إلى أوج الكمال .

غير أن تفسير القرآن الكريم بدأ واستمر يزكو عوده . وسيستمر يزكو ويزكو دون أن ينتهى إلى غاية . أو يقف عند نهاية .. ولا عجب ؛ فالقرآن كلام رب العالمين الذى لا يَخلق على كثرة الرد . ولا تنقضى عجائبه .

وكان طبيعيا أن يبدأ تفسير القرآن الكريم على صورة ضيقة ؛ لأن القوم - وقت نزوله - كانوا عربا خلصا . يعرفون اللسان العربى . ولا يخفى

عليهم من معانيه إلاّ النزر اليسير الذى لا يلبث أن ينجلى لهم برجوعهم فيه إلى رسول الله ﷺ .

... ثم تتسع دائرة التفسير شيئا فشيئا كلما ازداد الغموض على الناس . ضرورة بعدهم عن معين العربية التى نزل بها القرآن الكريم .

ونستطيع أن نحصر هذا التدرج فى فهم القرآن الكريم فى ثلاث مراحل :

المرحلة الأولى : فى عصر النبى ﷺ وصحابته .

المرحلة الثانية : فى عصر التابعين .

المرحلة الثالثة : ما بعد عصر التابعين . أو منذ بدأ التدوين للعلوم إلى يومنا هذا .

ونفرد كل مرحلة من هذه المراحل الثلاث بالحديث عن مسار التفسير فيها . وتدرجه . واتجاهاته . وألوانه ؛ فنقول :

* * *

المرحلة الأولى للتفسير

أو التفسير فى عصر النبى ﷺ وأصحابه

جرت سنة الله مع رسله عليهم السلام أن يرسل كلاًّ منهم بلسان قومه حتى يستطيعوا الأخذ منه . والفهم عنه . مصداق ذلك قوله تعالى :

«وما أرسلنا من رسولٍ إلا بلسانِ قومِهِ ليبيّنَ لهم»(١) .

وعلى هذه السنة نزل القرآن الكريم على رسول الله ﷺ . قال عز من قائل : «إنّا أنزلناه قرآنا عربيًا لعلّكمْ تعقِلون»(٢) وقال : «وإنّه لتنزيل ربِّ العالمين . نزل بهِ الروح الأمين . على قلبكَ لتكونَ من المُنذِرينَ . بلسانٍ عربي مبينٍ»(٣) .

وكان من الضروري – وقد نزل القرآن بلغة العرب على رسول هو أعلم الناس بلغة العرب . ثم هو بعد قد ضمن الله له بيان القرآن بقوله : (... فإذا قرأناه فاتّبعْ قرآنه . ثمّ إنّ علينا بيانه)(٤) – كان ضروريا مع هذا كله – أن يفهم رسول الله ﷺ القرآن الكريم جملة وتفصيلا . بحيث لا يغيب عنه من معانيه وأسراره وحكمه وأحكامه شاردة ولا واردة .

وكان من الضروري – أيضا – وقد عاصر الصحابة نزول القرآن الكريم . وعرفوا أسباب نزوله – أن يفهموا القرآن الكريم فى جملته . أمّا فهمه تفصيلا . ومعرفة دقائقه وأسراره . بحيث لا تخفى عليهم منه خافية – فذلك أمر لا نقول به . ولم يقل به أحد ممن يعتد برأيه ؛ لأن

(١) سورة إبراهيم – الآية ٤
(٢) سورة يوسف الآية ٢
(٣) سورة الشعراء الآيات ١٩٢ – ١٩٥
(٤) سورة القيامة – الآيتان ١٨ ، ١٩ .

الأمثلة والشواهد قائمة وصريحة فى أنه خفى على بعض الصحابة . بل على أرسخهم فى العلم قدما – بعض معانى القرآن الكريم . كما سنبين ذلك فيما بعد إن شاء الله .

ثم إن الصحابة – رضوان الله عليهم أجمعين – كانوا إذا خفى على أحدهم بعض آيات القرآن الكريم لا يقبل من هذا شأنه منهم أن يقيم على جهل بها . بل كان يسارع إلى رسول الله ﷺ ليستوضحه معناها . وربما سارع إلى من هو أفقه منه من الصحابة . فيجد عنده ما يريد من علم ومعرفة .

ولقد نجد خلافا بين علماء المسلمين : فمنهم من ذهب إلى أن النبى ﷺ بيّن لأصحابه كل معانى القرآن الكريم . ومنهم من ذهب إلى أنه – عليه الصلاة والسلام – لم يبين لهم إلا القليل . ولا متسع لسرد كل من القولين . ولا أدلة كل من الفريقين . وأمامنا عبارة لابن عباس يرويها عنه ابن جرير الطبرى فى تفسيره(١) ونصها : «التفسير على أربعة أوجه :

١ – وجه تعرفه العرب من كلامها .
٢ – وتفسير لا يعذر أحد بجهالته .
٣ – وتفسير تعرفه العلماء .
٤ – وتفسير لا يعلمه إلا الله .

(١) ج ١ ص ٥٢ ط : الأميرية .

ومن خلال هذا النص لترجمان القرآن ابن عباس – نستطيع أن نخرج بحقيقة تقضى على هـــذا الخلاف الذى أمسكنا عن تفصيله ، هذه الحقيقة هى :

أن رسول الله ﷺ لم يفسر لهم القسم الأول . وهو : ما يرجع فهمه إلى معرفة كلام العرب لأن القرآن نزل بلغتهم .

ولم يفسر لهم القسم الثانى ، وهو : ما تتبادر الأفهام إلى معرفته ، وهو الذى لا يعذر أحد بجهله ؛ لأنه لا يخفى على أحد .

ولم يفسر لهم القسم الرابع وهو ما استأثر الله بعلمه : كوقت قيام الساعة . وحقيقة الروح . . وغير ذلك من كل الغيوب التى لم يُطْلع الله عليها نبيه .

وإنما فسر لهم رسول الله ﷺ بعض المغيبات التى أخفاها الله عنهم وأطلع عليها نبيه وأمره ببيانها لهم .

وفسر لهم – أيضاً – كثيراً مما يندرج تحت القسم الثالث ، وهو مايعلمه العلماء ويرجع إلى اجتهادهم : كبيان المجمل ، وتخصيص العام ، وتقييد المطلق ، وغير ذلك من كل ما خفى معناه ، والتبس المراد به .

وإذن فبعض مايروى عن الصحابة فى التفسير مأخوذ عن رسول الله ﷺ . وبعضه – وهو ما لم يتيسر لهم أخذه عنه وكان بحاجة إلى نظر واجتهاد – قالوا فيه برأيهم . وأعملوا فيه نظرهم واجتهادهم مستعينين فى ذلك بما يعرفونه من أوضاع اللغة وأسرارها ، وعادات العرب وتقاليدها ،

والحوادث التى نزلت بعض الآيات بشأنها . وأحوال أهل الكتاب الذين كانوا فى جزيرة العرب وقت نزول القرآن الكريم . . . ثم بقوة الفهم وسعة الإدراك – كما قال على رضى الله عنه – لما سئل : هل عندكم شىء من الوحى إلاّ ما فى كتاب الله ؟ – قال : « لا والذى فلق الحبة . وبرأ النسمة . ما أعلمه إلاّ فهماً يعطيه الله رجلا فى القرآن . . . »(1)

ومن البدهى أن قول علىّ رضى الله عنه (ما أعلمه إلاّ فهماً يعطيه الله رجلا فى القرآن) يساعدنا فى تثبيت ما قلنا قبل : من أن الصحابة متفاوتون فى فهم القرآن الكريم . وقد يخفى عليهم الكثير من معانيه .

ولو أننا رجعنا إلى عصر الصحابة لوجدنا أن الكثير منهم كانوا يكتفون بالمعنى الإجمالى للآية : ومما يشهد لهذا ما أخرجه أبو عبيدة فى الفضائل عن أنس رضى الله عنه : أن عمر بن الخطاب قرأ على المنبر « وفاكهة وأبا » فقال : هذه الفاكهة قد عرفناها . فما الأب ؟ ثم رجع إلى نفسه فقال : « إن هذا لهو التكلّف يا عمر »(2)

وما أخرجه أبو عبيدة من طريق مجاهد عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : كنت لا أدرى ما فاطر السموات حتى أتى أعرابيان يتخاصمان فى بئر فقال أحدهما : أنا فطرتها : يقول : أنا ابتدأتها . ولا ضير فى هذا ؛ لأن اللغة لا يحيط بها إلاّ معصوم . ولم يدّع أحد أن كل فرد من أمة

---

(1) صحيح البخارى فى باب الجهاد ج ٤ ص ٦٩ ط . الخيرية ١٣٢٠ هـ

(2) الاتقان جـ ٢ ص ١١٣ .

يعرف جميع ألفاظ لغتها .

ولو أننا رجعنا – أيضا – إلى عصر الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين – لوجدنا أن منهم من كان يفهم الآية على غير وجهها : يشهد لذلك ما رواه البخارى من أن عدى بن حاتم لم يفهم معنى قوله تعالى « وكلوا واشربوا حتّى يتبيّن لكم الْخيط الأبيض من الْخيط الأسود من الفجر »[1] وبلغ من أمره أن أخذ عقالا أبيض وعقالا أسود . فلما كان بعض الليل نظر إليهما فلم يستبينا . فلما أصبح أخبر الرسول بشأنه . فعرض بقلة فهمه . وأفهمه المراد[2] .

ولو أننا رجعنا – ثالثا – إلى عصر الصحابة – رضى الله عنهم – لوجدنا من شيوخهم من لا يدركون إشارات القرآن الكريم على حين يفهمها من هو فى أول سلم الشباب : يشهد لذلك ما رواه البخارى فى صحيحه عن ابن عباس قال : « كان عمر يدخلنى مع أشياخ بدر فكأن بعضهم وجد فى نفسه وقال : لم يدخل هذا معنا وإن لنا أبناء مثله ؟ فقال عمر : إنه من أعلمكم . فدعاهم ذات يوم فأدخلنى معهم . فما رأيت أنه دعانى يومئذ إلاّ ليريهم . فقال : ما تقولون فى قوله تعالى : « إذا جاء نصر الله والفتح . . . » ؟ فقال بعضهم : أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا . وسكت بعضهم ولم يقل شيئا . فقال

(١) سورة البقرة – الآية ١٨٧

(٢) الحديث عن البخارى فى باب التفسير .

لى : أكذلك تقول يابن عباس ؟ فقلت : لا . فقال : ماتقول ؟ قلت : هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه الله له ، قال إذا جاء نصر الله والفتح فذلك علامة أجلك (فَسبحْ بِحمْدِ رَبكَ واستَغْفِرْه إنّه كَانَ توّاباً) فقال عمر : لا أعلم منها إلا ما تقول »

مصادر التفسير فى هذه المرحلة

أما مصادر التفسير فى هذه المرحلة :

فبالنسبة إلى رسول الله ﷺ : لا مصدر له إلاّ الله عز وجل ؛ لأنه : إمّا أن يأخذ عن الله مباشرة . وإما أن يأخذ عن القرآن الكريم نفسه . وإما أن يجتهد رأيه . وهو فى كل ذلك آخذ عن الله سبحانه : « وَمَا ينْطِق عَنِ الْهوَى . إن هوَ إلاّ وَحْىٌ يوحى »[1] . وسنذكر – بعد قليل – بعض ما أثر عن الرسول ﷺ فى التفسير .

وأما بالنسبة إلى الصحابة – رضى الله عنهم وأرضاهم – فمصادر التفسير أربعة :

المصدر الأول – القرآن الكريم :

وذلك أن القرآن يشتمل على الإيجاز والإطناب . وعلى الإجمال والتبيين . وعلى الإطلاق والتقييد . وعلى العموم والخصوص . وما أوجز

(١) سورة النجم – الآيتان ٣ . ٤

فى مكان قد يذكر مفصلا فى مكان آخر . وما أجمل فى موضع قد يُبين فى موضع آخر . وما جاء مطلقاً فى ناحية قد يلحقه التقييد فى ناحية أخرى . وما كان عاماً فى آية قد يدخله التخصيص فى آية أخرى .

من أجل هذا كان لا بد لمن يتعرض لتفسير كتاب الله تعالى أن ينظر فى القرآن أولا ، فيجمع ما تكرر منه فى موضوع واحد . ويقابل الآيات بعضها ببعض ؛ ليستعين بما جاء مسهباً على معرفة ماجاء موجزاً . وبما جاء مبيّنا على فهم ماجاء مجملا ؛ وليحمل المطلق على المقيد . والعام على الخاص ؛ وبهذا يكون قد فسر القرآن بالقرآن . وفهم مراد الله بما جاء عن الله ، وهذا مصدر لا يجوز لأحد – مهما كان – أن يعرض عنه . ويتعداه إلى غيره من المصادر .

ومن أمثلة تفسير القرآن بالقرآن :

١ – قوله تعالى : « فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ . . . »(١) : فسّر (الكلماتِ) قوله تعالى فى آية أخرى : « قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ(٢) » .

٢ – وقوله تعالى : « . . ويريد الَّذِينَ يتبعونَ الشَّهواتِ أن تميلوا مَيلاً عَظِيماً »(٣) : فسر الاسم الموصول بأهل الكتاب فى قوله « أَلَمْ تر إلى

(١) سورة البقرة – الآية ٣٧ .
(٢) سورة الأعراف – ٢٣ .
(٣) سورة النساء – الآية ٢٧ .

الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلاَلَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ »(١)

والأمثلة كثيرة لهذا التفسير .

المصدر الثانى – النبى ﷺ :

وذلك يكون بالرجوع إليه فى حياته . وبالرجوع إلى سنته بعد وفاته ؛ وذلك لأن وظيفة الرسول – ﷺ – البيان كما أخبر الله عنه بذلك فى كتابه العزيز بقوله : « وأنزلنا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتبيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيهِمْ وَلَعَلَّهمْ يَتَفكَّرُونَ »(٢) وكما نبه على ذلك رسول الله ﷺ فيما رواه أبو داود بسنده عنه أنه قال « . . . ألا وإنى أوتيت الكتاب ومثله معه ، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول : عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه . وما وجدتم فيه من حرام فحرموه . . . » الحديث .

ومن أمثلة تفسير القرآن بالسنة :

١ – ما أخرجه الترمذى عن على قال : سألت رسول الله – ﷺ – عن (يومَ الْحَجِّ الأكْبر)(٣) فقال : يوم النحر .

(١) سورة النساء – الآية ٤٤ .
(٢) سورة النحل – الآية ٤٤ .
(٣) سورة التوبة – الآية ٣ .

٢ - ما أخرجه مسلم وغيره عن عقبة بن عامر قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول وهو على المنبر : « وَأَعِدّوا لَهم مَا استَطَعْتمْ من قوة[1] » ألا وإن القوة الرمى . والأمثلة كثيرة لهذا النوع من التفسير . وفى كتب السنة منها الكثير .

غير أن الوضّاع قد أدخلوا على هذا النوع من التفسير كثيراً من الأكاذيب والأباطيل . ولكن علماء الحديث ونقّاده قد نبهوا إلى زيف هذه الروايات وفسادها .

المصدر الثالث - الاجتهاد وقوة الاستنباط :

وذلك إذا لم يجدوا التفسير فى كتاب الله تعالى . ولم يتيسر لهم أخذه عن النبى - ﷺ - مباشرة أو بالوساطة ، فحينئذ يكون الاجتهاد واجباً على من تتوافر فيه شروط الاجتهاد . وهذا - بالضرورة - إنما يكون فيما يحتاج إلى نظر واجتهاد . أمّا ما يمكن فهمه بمجرد معرفة اللغة فكانوا لا يحتاجون فى فهمه إلى إعمال النظر . ضرورة أنهم عرب خلّص يعرفون كلام العرب ومناحيهم فى القول . ويعرفون الألفاظ العربية ومعانيها بالوقوف على ما ورد من ذلك فى الشعر الجاهلى الذى هو ديوان العرب . كما يقول عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

هذا ، وأدوات الاجتهاد فى التفسير عند الصحابة تنحصر فيما يلى :

(١) سورة الأنفال - الآية ٦٠ .

١ - معرفة أوضاع اللغة العربية وأسرارها . لأنها تعين على فهم الآيات التى لا يتوقف فهمها على غير لغة العرب .

٢ - معرفة عادات العرب . لأنها تعين على فهم الكثير من الآيات التى لها صلة بعاداتهم .

٣ - معرفة أحوال اليهود والنصارى فى جزيرة العرب وقت نزول القرآن ، لأنها تعين على فهم الآيات التى فيها الإشارة إلى أعمالهم والرد عليهم .

٤ - معرفة أسباب النزول وما أحاط بالقرآن من ظروف وملابسات . وذلك لأنها تعين على فهم كثير من الآيات القرآنية ، ولهذا قال الواحدى : « لايمكن معرفة تفسير الآية دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها[1] » .

٥ - قوة الفهم وسعة الإدراك - وهذا فضل الله يعطيه من يشاء من عباده - وذلك لأن كثيراً من آيات القرآن يدق معناه . ويخفى المراد منه . ولا يظهر إلاّ لمن أوتى حظاً من الفهم ونور البصيرة . ولقد أوتى ابن عباس حظاً وافراً من ذلك . وهذا ببركة دعاء رسول الله ﷺ له بقوله : « اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل[2] » .

(١) منهج الفرقان فى علوم القرآن جـ ١ ص ٣٦

(٢) انظر ما كتبه ابن حجر عن روايات هذا الحديث وطرقها فى فتح البارى جـ ١ ص ١٢٤ ، ١٢٥ كتاب العلم - باب قول النبى ﷺ (اللهم علمه الكتاب) .

المصدر الرابع – أهل الكتاب من اليهود والنصارى :

وذلك أن القرآن الكريم يتفق مع التوراة فى بعض المسائل . وبالأخص فى قصص الأنبياء وما يتعلق بالأمم الغابرة .

وكذلك يشتمل القرآن على موضوعات وردت فى الإنجيل كقصة ميلاد عيسى عليه السلام ومعجزاته . غير أن القرآن الكريم اتخذ منهجاً يخالف منهج التوراة ومنهج الإنجيل . فلم يتعرض لتفاصيل جزئيات المسائل . ولم يستوف القصة من جميع نواحيها – كما جرى عليه أمر التوراة والإنجيل – بل اقتصر من ذلك على مواضع العبرة فقط .

ولما كانت العقول – دائماً – تميل إلى الاستيفاء والاستقصاء – جعل بعض الصحابة رضى الله عنهم أجمعين – يرجعون فى استيفاء القصص التى لم يتعرض لها القرآن الكريم من جميع نواحيها إلى من دخل فى الإسلام من أهل الكتاب : كعبد الله بن سلام . وكعب الأحبار . وغيرهما من علماء اليهود والنصارى . وهذا – بالضرورة – كان بالنسبة لمن ليس عندهم فيه شىء عن رسول الله ﷺ . لأنه لو ثبت فى ذلك شى عن رسول الله ﷺ ما كانوا يعدلون عنه إلى غيره مهما كان المأخوذ عنه .

غير أن رجوع بعض الصحابة إلى أهل الكتاب لم يكن له من الأهمية فى التفسير ما للمصادر الثلاثة السابقة . وإنما كان مصدراً محدوداً ، وذلك لأن التوراة والإنجيل وقع فيهما كثير من التحريف والتبديل . وكان طبيعيًّا

أن يحافظ الصحابة على عقيدتهم ، ويصونوا القرآن عن أن يخضع فى فهم معانيه لشىء مما جاء ذكره فى هذه الكتب غير الموثوق بها .

أشهر المفسرين من الصحابة

اشتهر بالتفسير من الصحابة عدد قليل ، وقد عدّ السيوطى فى الإتقان من اشتهر بالتفسير من الصحابة وسماهم ، وهم : الخلفاء الأربعة ، وابن مسعود ، وابن عباس ، وأبىّ بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وأبو موسى الأشعرى ، وعبد الله بن الزبير ، رضى الله عنهم .

وهناك من تكلم فى التفسير من الصحابة غير هؤلاء : كأنس بن مالك ، وأبى هريرة ، وعبد الله بن عمر ، وجابر بن عبد الله ، وعبد الله ابن عمرو بن العاص ، وعائشة أم المؤمنين ، وما نقل عن هؤلاء فى التفسير قليل جدًّا .

غير أن أربعة من الصحابة اشتهروا بالتفسير ، ونقل عنهم فيه أكثر من غيرهم ، وهؤلاء الأربعة هم :

١ – عبد الله بن عباس (٢) عبد الله بن مسعود (٣) على ابن أبى طالب (٤) أبى ابن كعب وقد رتبناهم على حسب كثرة المروى عنهم .

قيمة التفسير المأثور عن الصحابة

تتلخص قيمة التفسير المأثور عن الصحابة فيما يلى :

١ – إذا كان تفسير الصحابى مما يرجع إلى أسباب النزول . أو كان مما لا مجال للرأى فيه – فهو فى حكم المرفوع إلى الرسول ﷺ . لأنه لا يعقل أن يقول فيه الصحابى برأيه . ولهذا يجب الأخذ به . ولا يجوز رده اتفاقاً .

٢ – إذا كان تفسير الصحابى مما يكون للرأى فيه مجال – فهو موقوف عليه مادام لم يسنده إلى رسول الله ﷺ . وهذا تختلف فيه أنظار العلماء :

فذهب فريق منهم إلى أنه يجب ألا يؤخذ به ، لأنه لمّا لم يرفعه عَلِمَ أنه اجتهد فيه ، والمجتهد يخطئ ويصيب ، والصحابة فى اجتهادهم كسائر المجتهدين .

وذهب فريق آخر : إلى أنه يجب الأخذ به ؛ لظن سماعه له من رسول الله ﷺ . ولأنهم إن فسروا برأيهم فرأيهم صواب ؛ لأنهم أدرى الناس بكتاب الله .

مميزات التفسير فى هذه المرحلة

يمتاز التفسير فى هذه المرحلة بالمميزات الآتية :

١ – لم يفسر كل القرآن . وإنما فسر بعضه . وهو ما كان خافياً على الصحابة . وسألوا عنه رسول الله ﷺ .

٢ – إن الاختلاف فى التفسير كان قليلا .

٣ – الاكتفاء – فى كثير من الأحيان – بالمعنى الإجمالى . فيكفى أن يفهموا من مثل قوله تعالى « فاكهة وأبا [١] » أنه تعداد لنعم الله تعالى على عباده . أمّا ما الأبّ ؟ فذلك هو التكلف . كما قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه . وقد ذكرنا القصة من قبل ص ١٧ .

٤ – الاقتصار فى توضيح المعنى اللغوى الذى فهموه على أخصر لفظ ، مثل قولهم : « غيرَ متجانِفٍ لإثم [٢] » أى غير متعرض لمعصية . فإن زادوا على ذلك فما عرفوه من سبب النزول .

٥ – ندرة الاستنباط العلمى للأحكام الفقهية من الآيات القرآنية . وعدم الانتصار للمذاهب الدينية ضرورة اتحادهم فى العقيدة . لأن الخلافات المذهبية لم توجد إلاّ بعد عصر الصحابة .

---

(١) سورة عبس – الآية ٣١

(٢) سورة المائدة – الآية ٣

٦ – لم يدوّن شيء من التفسير فى هذه المرحلة كعلم ؛ لأن تدوين العلوم لم يبدأ إلاّ فى القرن الثانى الهجرى .

٧ – اتخذ التفسير فى هذه المرحلة شكل الحديث . ولم يكن التفسير إلاّ مجرد روايات تروى منثورة لآيات متفرقة : يسأل الرسول ﷺ عن معنى آية من القرآن الكريم فيقول فيها ما شاء الله أن يقول . ويحمل ذلك عنه بعض أصحابه فيروونها لمن لم يسمعها منهم . أو لمن يتلقون عنهم من التابعين . وبالجملة فإن التفسير لم يتجاوز – فى هذه المرحلة – طريق الرواية [١] . وهى الأصل فيما يعرف بالتفسير المأثور . وسيأتى الحديث عنه إن شاء الله .

المرحلة الثانية للتفسير

أو التفسير فى عصر التابعين

بدء هذه المرحلة :

تنتهى المرحلة الأولى للتفسير بانصرام عصر الصحابة . وتبدأ المرحلة الثانية للتفسير من عصر التابعين الذين تتلمذوا للصحابة . فجلسوا إليهم . وأخذوا عنهم .

(١) ليس لمعترض أن يعترض علينا بتفسير (تنوير المقباس) المنسوب لابن عباس . لأن نسبته إليه لم تصح .

وكما اشتهر بالتفسير بعض أعلام الصحابة اشتهر بالتفسير – كذلك – بعض أعلام التابعين .

مصادر التفسير فى هذه المرحلة :

وكما كان للتفسير فى عصر الصحابة مصادر يرجعون إليها ويقبسون منها – كذلك كان للتابعين مصادر للتفسير يرجعون إليها ويقبسون منها . والفارق بين مصادر هؤلاء وأولئك فارق بسيط ضرورة تقارب العصرين . وإليك هذه المصادر :

١ – القرآن الكريم . فليس لمفسر أن يعدل عنه إلى غيره .

٢ – ما أثر وصح عن رسول الله ﷺ فى التفسير « إنْ هو إلاّ وحْى يوحَى [١] » .

٣ – ما روى عن الصحابة من تفسيرهم هم . لأنهم عاصروا الرسول ﷺ . وعاصروا نزول القرآن . وعرفوا أسباب نزوله .

٤ – ما نقل عن أهل الكتاب مما جاء فى كتبهم . على نحو ما قلنا بالنسبة للصحابة . غير أن بعض التابعين توسعوا فى ذلك وتساهلوا فى نقل المروى منه دون تحر للصحة .

٥ – ما يفتح الله به عليهم من طريق الاجتهاد والنظر فى كتاب الله .

(١) سورة النجم – الآية ٤

حركة التفسير ومدارسه فى هذه المرحلة

قلنا فيما سبق : إن ما نقل عن الرسول ﷺ فى التفسير قليل ، وكذلك ما نقل عن أصحابه ، وكان هذا أمراً طبيعيًّا ، لأن القوم حين ذاك كانوا عرباً خلَّصا ، ولم يكن هناك من الغموض عليهم بالنسبة لآيات القرآن إلا النزر اليسر .

ثم يمضى عصر النبى ﷺ وأصحابه ، ويمتد الزمن بالناس إلى عهد التابعين ، وفيه يزداد الغموض على الناس فيحتاجون إلى من يكشف لهم الغموض ، ولا يروْن أمامهم إلاّ فقهاء التابعين وعلماءهم . فيسألوهم عما غمض عليهم ، فيفسروه لهم . ويبصِّروهم به ؛ وبذلك يكون التابعون قد زادوا فى التفسير بمقدار ما زاد على الناس من غموض .

. . . وهكذا تمضى حركة التفسير . وتسير فى نموّ مطرد مع زيادة الغموض إلى أن ينتهى الأمر بتفسير القرآن كله .

ولم تقف حركة التفسير حيث استقر الرسول وأصحابه فى دار الهجرة ، بل نرى حركة التفسير تسير بسير من اشتهر بالتفسير من الصحابة . وتستقر حيثما استقروا : فمن رحل منهم بعد الفتح الإسلامى إلى مكة رحل معه التفسير إليها . ومن استقر منهم بالمدينة استقر معه التفسير بها ، ومن نزح منهم إلى العراق نزح معه التفسير إليها . . . . وحيثما يُقِمْ عالم التفسير فى

أىٍّ من الأمصار يجلس للناس يفسر لهم كتاب الله عز وجل ، فيحملوا عنه علمه ، وينقلوه بعد لمن وراءهم ، ولقد قامت على أيدى هؤلاء العلماء الأعلام من الصحابة مدارس نسبت إليهم ، وتتلمذ عليهم فيها نفر كثير من التابعين ، وأشهر هذه المدارس :

أولا – **مدرسة التفسير بمكة** : وتنتمى إلى عبد الله بن عباس وأشهر تلاميذه بها من التابعين : سعيد بن جبير ، ومجاهد بن جبر ، وعكرمة مولى بن عباس . وطاوس بن كيسان اليمانى . وعطاء بن أبى رباح .

ثانياً – **مدرسة التفسير بالمدينة** : وتنتمى إلى أبىّ بن كعب . وأشهر تلاميذه بها من التابعين : أبو العالية : رفيع بن مهران الرياحى ، ومحمد ابن كعب القرظى ، وزيد بن أسلم .

ثالثاً – **مدرسة التفسير بالعراق** : وتنتمى إلى عبد الله بن مسعود ، وأشهر تلاميذه بها من التابعين :

علقمة بن قيس النخعى ، ومسروق بن الأجدع الهمدانى ، والأسود بن يزيد النخعى . ومرة الهمدانى ، وعامر الشعبى ، والحسن البصرى ، وقتادة بن دعامة السدوسى .

. . . . وبعد فهؤلاء هم مشاهير المفسرين من التابعين ، وهذه هى مدارسهم التى انتموا إليها ، وأولئك هم شيوخهم الذين تتلمذوا عليهم ، ولاشك أن كل هؤلاء الآخذين والمأخوذ عنهم كانوا على مبلغ عظيم من العلم بكتاب الله ، فرضى الله عنهم وأرضاهم ، وجعل الجنة مثواهم .

قيمة التفسير المأثور عن التابعين

اختلف العلماء فى قيمة ما يروى عن التابعين فى التفسير . وفى الأخذ بأقوالهم إذا لم يؤثر فى ذلك شىء عن الرسول ﷺ أو عن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين . ونلخص ذلك فيما يلى :

١ — عن الإمام أحمد — رضى الله عنه — روايتان فى ذلك : رواية بالقبول . ورواية بعدم القبول .

٢ — وذهب بعض العلماء — ويحكى عن شعبة — إلى أنه لا يؤخذ بتفسير التابعى : وحجتهم فى ذلك : أن التابعين ليس لهم سماع من رسول الله ﷺ . فلا يمكن الحمل عليه كما قيل فى تفسير الصحابى : إنه محمول على سماعه من النبى ﷺ . وبأنهم لم يشاهدوا القرائن والأحوال التى نزل عليها القرآن . فيجوز عليهم الخطأ فى فهم المراد من النص القرآنى . قالوا : ومع ذلك فعدالة التابعين غير منصوص عليها كما نص على عدالة الصحابة : نقل عن أبى حنيفة رضى الله عنه أنه قال : «ما جاء عن رسول الله ﷺ فعلى الرأس والعين : وما جاء عن الصحابة تخيرنا . وما جاء عن التابعين فهم رجال ونحن رجال» .

٣ — وذهب أكثر المفسرين إلى أنه يؤخذ بقول التابعى فى التفسير . لأن التابعين تلقوا غالب تفسيراتهم عن الصحابة . فمجاهد — مثلا —

يقول : «عرضت القرآن على ابن عباس ثلاث عرضات أقف عند كل آية أسأله : فيم نزلت ؟ وكيف كانت ؟ (١)» وقتادة يقول : «ما فى القرآن آية إلاّ وقد سمعت فيها شيئا (٢)» . ولذا حكى أكثر المفسرين أقوال التابعين فى كتبهم . ونقلوها عنهم مع اعتمادهم لها .

والذى تميل إليه النفس فى هذه المسألة هو : أن قول التابعى فى التفسير يجب عدم الأخذ به إلاّ إذا كان مما لا مجال للرأى فيه . فإنه يؤخذ به حينئذ عند عدم الريبة . فإن ارتبنا فيه بأن كان يأخذ عن أهل الكتاب فلنا أن نترك قوله ولا نعتمد عليه . أمّا إذا أجمع التابعون على رأى فإنه يجب علينا أن نأخذ به ولا نتعداه إلى غيره .

مميزات التفسير فى هذه المرحلة

يتميز التفسير فى هذه المرحلة بالمميزات الآتية :

١ — دخل فى التفسير كثير من الإسرائيليات والنصرانيات . وقد تساهل بعض المفسرين من التابعين . فزجوا بها فى التفسير برغم بطلانها . ولا شك أن هذا أمر مأخوذ عليهم . كما هو مأخوذ على من بعدهم .

---

(١) تهذيب التهذيب ج ١٠ ص ٤٢ : ط : الهند سنة ١٣٢٥ هـ

(٢) مقدمة ابن تيمية فى أصول التفسير ص ٢٨ وعزا الرواية للترمذى .

٢ – ظل التفسير محتفظاً بطابع التلقى والرواية . غير أنه لم يكن تلقيا ورواية على الشمول كما كان عليه الشأن فى عصر النبى ﷺ . وإنما كان تلقيا ورواية يغلب عليهما طابع الاختصاص : فأهل كل مصر يُعنَوْن – بوجه خاص – بالتلقى والرواية عن إمام مصرهم : فالمكيون عن ابن عباس . والمدنيون عن أُبيّ . والعراقيون عن ابن مسعود . . . وهكذا .

٣ – ظهر فى التفسير تفسيرات تحمل فى طياتها الانتصار لبعض المذاهب الدينية التى ظهرت فى هذا العصر . عصر التابعين : فنجد – مثلا – قتادة بن دعامة السدوسى ينسب إلى الخوض فى القضاء والقدر . ويتهم بأنه قدرِيّ . كما نجد الحسن البصرى يفسر القرآن على إثبات القَدَر ويكفّر من يكذب به .

٤ – كثر الخلاف بين التابعين فى التفسير عما كان بين الصحابة رضوان الله عليهم . وإن كان اختلافاً قليلاً بالنسبة لما وقع بعد ذلك من متأخرى المفسرين .

المرحلة الثالثة للتفسير
أو التفسير فى عصر التدوين

بدء هذه المرحلة :

تبدأ المرحلة الثالثة للتفسير من مبدأ ظهور التدوين . وذلك فى أواخر خلافة بنى أمية وأوائل خلافة العباسيين .

خطوات التفسير فى هذه المرحلة :

كانت **الخطوة الأولى** للتفسير فى مرحلتيه : الأولى والثانية – كما قدمنا – هى رواية التفسير المأثور عن رسول الله ﷺ وعن الصحابة والتابعين ولم يكن هناك من سبيل لتلقى التفسير المأثور عن هؤلاء إلا بطريق الرواية ؛ لأن تدوين العلوم – ومنها علم التفسير – لم يبدأ إلا بعد زمن التابعين .

ثم جاءت المرحلة الثالثة للتفسير . وفيها ابتدأ تدوين العلوم . وخطا التفسير **خطوته الثانية** : وذلك حيث ابتدأ التدوين لحديث رسول الله ﷺ ، فكانت أبوابه متنوعة . وكان التفسير باباً من هذه الأبواب التى اشتمل عليها الحديث . فلم يفرد له تأليف خاص يفسر القرآن سورة سورة . وآية آية من مبدئه إلى منتهاه . بل وجد من العلماء من طوف فى

الأمصار المختلفة ليجمع الحديث ، فجمع بجوار ذلك ما روى فى الأمصار من تفسير منسوب إلى النبى ﷺ أو إلى الصحابة أو إلى التابعين : ومن هؤلاء : يزيد بن هارون السلمى المتوفى سنة ١١٧ هـ وشعبة بن الحجاج المتوفى سنة ١٦٠ هـ .

ثم خطا التفسير **خطوته الثالثة** : وبها انفصل عن الحديث ، فأصبح علماً قائماً بنفسه ، ووضع التفسير لكل آية من القرآن على حسب ترتيب المصحف ، وتم ذلك على أيدى طائفة من العلماء منهم : ابن ماجة المتوفى سنة ٢٧٣ هـ ، وابن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ هـ وغيرهما . وكل هذه التفاسير مروية بالإسناد إلى رسول الله ﷺ وإلى الصحابة والتابعين وتابعيهم . وليس فى واحد منها شيء من التفسير أكثر من التفسير المأثور ، اللهم إلا ابن جرير الطبرى ، فإنه ذكر الأقوال ، ثم وجهها ، ورجّح بعضها على بعض ، وزاد على ذلك الإعراب إن دعت إليه حاجة . كما استنبط الأحكام التى تؤخذ من الآيات القرآنية . وسنعود إلى الحديث عن هذا بشيء من التفصيل المأثور بين الرواية والتدوين .

ثم خطا التفسير **خطوته الرابعة** : لم يتجاوز فيها حدود التفسير بالمأثور ، وإن كان قد تجاوز روايته بالإسناد ، فصنف فى التفسير خلق كثير : اختصروا الأسانيد ، ونقلوا الأقوال المأثورة عن المفسرين من أسلافهم دون أن ينسبوها إلى قائليها ؛ فدخل الوضع فى التفسير . واختلط الصحيح بالعليل . وكان هذا هو مبدأ الوضع فى التفسير

ثم جاءت **الخطوة الخامسة** : وهى أوسع الخطى وأفسحها : امتدت من العصر العباسى إلى يومنا هذا . فبعد ما كان تدوين التفسير مقصوراً على رواية ما نقل عن سلف الأمة – تجاوز بهذه الخطوة الواسعة إلى تدوين تفسير إختلط فيه التفسير العقلى بالتفسير النقلى المأثور . وهنا بدأ التفسير العقلى يظهر بصورة ملحوظة . . ولكن على تدرج :

بدأ التفسير العقلى – أولا – على هيئة محاولات فهم شخصى . وترجيح لبعض الأقوال على بعض . . ثم ظلت محاولات هذا الفهم الشخصى تزداد شيئاً فشيئاً متأثرة بالمعارف المختلفة . والعلوم المتنوعة . والآراء المتشعبة . والعقائد المتباينة . حتى وجد من كتبِ التفسير ما يجمع أشياء كثيرة لا تكاد تتصل بالتفسير إلا عن بعد عظيم :

دونت علوم اللغة . ودون النحو والصرف . وأثيرت مسائل الكلام . وظهر التعصب المذهبى على قدمه وساقه فى العصر العباسى . وقامت الفرق الإسلامية بنشر مذاهبها والدعوة إليها . وترجمت كتب كثيرة من كتب الفلاسفة . فامتزجت كل هذه العلوم بالتفسير حتى طغت عليه . وغلب الجانب العقلى فيها على الجانب النقلى .

وإنا لنلاحظ أن الكتب المؤلفة فى التفسير قد اتجهت اتجاهات متنوعة . وتحكمت المصطلحات العلمية . والعقائد المذهبية – فى عبارات القرآن الكريم . فظهرت آثار الثقافة الفلسفية والعلمية للمسلمين فى تفسير القرآن ؛ كما ظهرت آثار التصوف واضحة فيه وكذلك ظهرت

آثار النحل والأهواء فيه ظهوراً جلياً .

وإنا لنلاحظ – أيضاً – فى وضوح وجلاء – أن كل من برع فى فن من فنون العلم يكاد يقتصر تفسيره على الفن الذى برع فيه :

فالنحوى تراه لا هم له إلاّ الإعراب وذكر ما يحتمل فى ذلك من أوجه . وتراه ينقل مسائل النحو وفروعه . وخلافياته : وذلك كالزجّاج . والواحدى فى تفسيره البسيط . وأبى حيان فى البحر المحيط .

وصاحب العلوم العقلية نراه يعنى فى تفسيره بأقوال الحكماء والفلاسفة . كما نراه يعنى بذكر شبههم والرد عليها : وذلك كالفخر الرازى فى تفسيره المسمى (مفاتيح الغيب) .

وصاحب الفقه نراه يعنى بذكر الفروع الفقهية وسرد المذاهب فيها . وسوق الأدلة عليها . فى تعصب ظاهر لمذهبه : وذلك كالجصاص الحنفى وابن العربى المالكى .

وصاحب التاريخ يهتم بالقصص . وذكر أخبار من سلف . ما صح منها وما لا يصح : كالثعلبى والخازن .

وصاحب البدع والأهواء يحرص كل الحرص على ترويج بدعته . وتفسير القرآن على هواه ومذهبه : كالجبّائى والزمخشرى من المعتزلة . وملاّ محسن الكاشى من الإمامية الاثنى عشرية .

والمتصوفة قصدوا إلى الترغيب والترهيب . واستخراج المعانى الإشارية بما يتفق مع مشاربهم . ويتناسب هو ورياضتهم ومواجيدهم :

كابن عربى . وأبى عبد الرحمن السلمى .

. . . وهكذا فسر كلّ صاحب فنّ أو مذهب بما يناسب فنه الذى برع فيه . ومذهبه الذى استمسك به .

وقد استمرت هذه النزعة العلمية العقلية المذهبية . وراجت فى بعض العصور رواجاً عظيماً . كما راجت فى عصرنا الحاضر تفسيرات يريد أصحابها من ورائها أن يحمّلوا آيات القرآن الكريم كل العلوم ما ظهر منها وما بطن فى غلوٍّ ظاهر يخرج بالقرآن الكريم عن أهدافه ومقاصده !

أنواع التفسير

وإذا نحن تتبعنا كتب التفسير على اختلاف أزمانها ، وتنوع مناهجها واتجاهاتها . — وجدنا أن المناحى العامة التى تجمع هذه المناهج والاتجاهات تنحصر فى خمسة أنواع من التفسير . وهى :

١ – التفسير المأثور .

٢ – التفسير بالرأى أو التفسير العقلى .

٣ – التفسير الموضوعى .

٤ – التفسير الإشارى .

٥ – التفسير العلمى .

ونتكلم عن كل نوع من هذه الأنواع المختلفة فنقول :

١ – التفسير المأثور

حقيقة التفسير المأثور :

نريد بالتفسير المأثور : ما نقل عن الرسول ﷺ . وما نقل عن صحابته رضوان الله عليهم أجمعين . وما نقل عن التابعين من كل ما هو بيان وتوضيح لمراد الله تعالى من نصوص كتابه الكريم .

وإنما أدرجنا فى التفسير المأثور ما روى عن التابعين – وإن كان فيه خلاف : هل هو من قبيل المأثور أو من قبيل الرأى ؟ – لأنا وجدنا كتب التفسير تروى ما نقل عن التابعين بجوار ما نقل عن النبى ﷺ وما نقل عن أصحابه رضوان الله عليهم .

تطور التفسير المأثور بين الرواية والتدوين :

ولقد مّر التفسير بالمأثور – كما أشرنا من قبل – بطورين : طور الرواية . وطور التدوين :

أما طور الرواية : فقد بدأ من عصر النبى ﷺ حيث كان عليه الصلاة والسلام يفسر لأصحابه ما خفى عليهم من القرآن الكريم . وكان الصحابة يتلقونه عنه . ثم يرويه بعضهم لبعض . أو لمن عاصرهم من التابعين .

ثم وجد من الصحابة من تكلموا فى التفسير بما ثبت لديهم عن رسول الله ﷺ أو بما توصلوا إليه بنظرهم واجتهادهم . ونقل ذلك عنهم بعض من عاصرهم من التابعين .

ثم وجد من التابعين من تكلموا فى التفسير بما ثبت لديهم عن رسول الله ﷺ . أو عن بعض أصحابه أو بما فتح الله به عليهم . ونقل ذلك عنهم من عاصرهم من أتباع التابعين .

ولقد كان شأن رواية التفسير المأثور كشأن رواية الحديث بعامة من ناحية تحّرى الصحة وعدمها . فقد استمر هذا التحرى والتثبت إلى آخر عصر الصحابة . أما بعد عصر الصحابة فقد أدخل بعض الرواة فى التفسير ما ليس منه تهاونا منهم . أو نصرةً لمذهب معيّن . وسنعرض لذلك بشىء من التفصيل فيما بعد إن شاء الله .

وأما طور التدوين :

فقد بدأ – كما قلنا آنفاً – بانتهاء مرحلة الرواية وابتداء مرحلة التدوين للعلوم بعامة . وكان التفسير من بين العلوم التى دونت . وكان تدوينه على تدرج ملحوظ نجمله فيما يلى :

١ – بدأ تدوين التفسير على أنه جزء من الحديث . فأفردوا له باباً من أبواب الحديث المختلفة . فكانوا يجمعون فيه ما أثر فى التفسير عن النبى ﷺ . وعن الصحابة والتابعين متحرين الصحة فى ذلك ما أمكنهم

٢ - ثم بعد ذلك انفصل التفسير عن الحديث . وأفرد بتأليف خاص . وكان أول ما عرف من ذلك تلك الصحيفة التى رواها على بن طلحة عن ابن عباس (١) .

٣ - ثم وجد من ذلك جزء أو أجزاء دونت فى التفسير خاصة : كالجزء المنسوب لأبى روق . والأجزاء الثلاثة التى يرويها محمد بن ثور عن ابن جريج (٢) . وكانوا يتحرون الصحة فيما يجمعون ما أمكنهم .

٤ - ثم دونت موسوعات فى التفسير جمعت كل ما وقع لأصحابها من التفسير المروى عن النبى ﷺ . وعن أصحابه والتابعين . دون أن يلتزموا بالصحيح من ذلك مكتفين بذكر أسانيد ما يجمعون . ذلك لأنهم يرون أنهم بذكرهم للأسانيد قد خرجوا من العهدة . وحمّلوا غيرهم تبعة البحث عن حال الرواة . وقد قرر ذلك علماء أصول الحديث بقولهم : « من أسند لك فقد حمّلك » : ومن هذه الموسوعات تفسير ابن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ هـ .

٥ - ثم دونت بعد ذلك موسوعات فى التفسير . ولم يتحرّ أصحابها الصحة فيما يروون . ولم يذكروا الأسانيد . وهؤلاء قد أساءوا للتفسير المأثور إساءة بالغة : لأنهم خلطوا بين ما يصح وما لا يصح . ولم يبينوا لنا رجال الأسانيد حتى نستطيع أن نحكم لهم أو عليهم : ومن هذه الموسوعات تفسير (بحر العلوم) لأبى الليث السمرقندى المتوفى سنة

(١ ، ٢) الإتقان ج ٢ ص ١٨٠ .

٣٧٣ هـ (١) . فلا تكاد تقع فيه على إسناد إلا نادرا .

٦ - ثم بعد ذلك انتقل التدوين فى التفسير من تدوين التفسير المأثور إلى تدوين التفسير بالرأى على تدرج ملحوظ تكلمنا عنه فيما سبق فى الصفحات : ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ .

تطرق الضعف إلى التفسير المأثور وأسبابه :

مما لا شك فيه أن الضعف قد تطرق إلى التفسير المأثور حتى كاد يذهب بالثقة فيه والاطمئنان إليه .

ولقد بدأ الضعف يتطرق إلى التفسير المأثور بصورة مزعجة فى أول عصر التابعين . وعلى وجه التحديد سنة إحدى وأربعين من الهجرة : حينما انقسم المسلمون إلى شيعة وخوارج وجمهور . وحينما كثرت الفتوح الإسلامية وانتسب إلى الإسلام حاقدون عليه يريدون تخريبه من أساسه . وحينما تعددت المذاهب الدينية والسياسية وأراد أصحابها أن يدعموها ولو بالأحاديث الموضوعة التى يختلقونها ثم ينسبونها إلى نبى الإسلام أو إلى أحد أصحابه .

ونستطيع أن نرجع أسباب الضعف فى رواية التفسير المأثور إلى أمور ثلاثة :

أولها : كثرة الوضع فى التفسير المأثور .

(١) وقيل : توفى سنة ٣٧٥هـ .

ثانيها : دخول الإسرائيليات فيه .

ثالثها : حذف الأسانيد منه .

أما كثرة الوضع فى التفسير المأثور : فقد أضعفت الثقة فيه . وأحاطته بسياج من الشك جعلت العلماء يردون كل رواية تطرق إليها شىء من الضعف ، وربما كانت صحيحة فى ذاتها .

كما أن اختلاط الصحيح بالعليل من الروايات جعل بعض من ينظر فيها وليس عنده القدرة على التمييز بينها — ينظر إلى الجميع نظرة واحدة ، فيحكم لها جميعاً بالصحة . وبهذا يختلط الأمر على الناظرين فى هذه الروايات ، ويبقى دور نقاد الحديث الذين يقدرون على تمييز صحيحه من عليله . وما أشقها من مهمة !

وأما دخول الإسرائيليات فى التفسير المأثور : فقد بدأ من عصر الصحابة . ولكنهم لم يتعدوا منطقة الإباحة التى حدّها لهم رسول الله ﷺ بقوله : « بلغوا عنى ولو آية . وحدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج ، ومن كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار[1] » . وبقوله : « لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم . وقولوا : « آمنا بالله وما أنزل إلينا . . » الآية[2] » .

وفى زمن التابعين توسع القوم فى الأخذ عن أهل الكتاب ، فكثرت

(١) البخارى ج ٦ ص ٣٢٠ من فتح البارى

(٢) البخارى — باب التفسير ج ٨ ص ١٢٠ من فتح البارى

فى عهدهم الروايات الإسرائيلية فى التفسير لكثرة من دخل فى الإسلام من أهل الكتاب ، وميل نفوس القوم لسماع التفاصيل عما يشير إليه القرآن من أحداث يهودية أو نصرانية .

ثم جاء بعد عصر التابعين من شَغفوا بالإسرائيليات . وأفرطوا فى الأخذ منها إلى درجة جعلتهم لا يردون قولاً ، ولا يحجمون عن أن يلصقوا بالقرآن كل ما يروى لهم وإن كان لا يتصوره عقل بشر !

. . . وقد استمر هذا الشغف بالإسرائيليات والولع برواياتها — مهما كان فيها من خرافة — حتى جاء عصر التدوين ، فوجد من المفسرين من حشوا كتبهم بهذا القَصص الإسرائيلى الذى كاد يصدّ الناس عن النظر فيها والركون إليها .

ولقد كان للقصاص والإخباريين دور كبير فى ترويج هذه الخرافات والأباطيل ، وهؤلاء وغيرهم ممن ساروا فى ركابهم قد وضعوا الشوك فى طريق المشتغلين بالتفسير ، وشكّكوا فى كثير من الأخبار الصحيحة التى رووها ضمن ما رووه من قصص مكذوب .

واما حذف الأسانيد : فلم يعرف ذلك إلاّ بعد عصر التابعين حيث تهاون الرواة فى الرواية ، ولم يصلوها برواتها ، وقد اندفع بعض المشتغلين بالتفسير وراء هذا المبدأ : فوجدنا منهم من ألفوا فى التفسير ، فاختصروا الأسانيد ، ونقلوا الأقوال غير معزوّة لقائلها ، ولم يتحروا الصحة فيما يروون ، فدخل من هنا الدخيل ، والتبس الصحيح بالعليل ! . . .

ثم صار كل من يسنح له قول — يورده . ومن يخطر بباله شيء يعتمده ، ثم ينقل ذلك من يجيء بعده ظاناً أن له أصلا غير ملتفت إلى تحرير ما ورد عن السلف .

. . . وبعد فلعله قد استبانت لنا خطورة هذه الأمور الثلاثة على التفسير المأثور . ولعل من الواضح أن أشدها خطورة هو حذف الأسانيد ؛ ذلك لأن خطر الوضع . وخطر الإسرائيليات كان من الممكن تلافيهما لو ذكرت الأقوال بأسانيدها . ولكن حذفها — مع الأسف — عمّى علينا كل شيء ، وليت هؤلاء الذين حذفوا الأسانيد ذكروها لنا لننقد رجالها ؛ حتى نعرف من يؤخذ عنه ، ومن يرد عليه !

. . . هذا ، وإن من أشهر ما دون فى التفسير المأثور على مدى تاريخ التفسير ما يلى :

١ — جامع البيان فى تفسير القرآن : لابن جرير الطبرى — المتوفى سنة ٣١٠ هـ .

٢ — معالم التنزيل : لأبى محمد الحسين البغوى — المتوفى سنة ٥١٠ هـ .

٣ — تفسير القرآن العظيم : للحافظ بن كثير الدمشقى — المتوفى سنة ٧٧٤ هـ .

٤ — الدر المنثور : لجلال الدين السيوطى سنة ٩١١ هـ .

* * *

٢ — التفسير بالرأى
أو التفسير العقلى

حقيقة التفسير بالرأى :

التفسير بالرأى أو التفسير العقلى معناه : تفسير القرآن بالاجتهاد بعد معرفة المفسر لكلام العرب . ومناحيهم فى القول . ومعرفته للألفاظ العربية ووجوه دلالتها . واستعانته فى ذلك بالشعر الجاهلى . ووقوفه على أسباب النزول . ومعرفته بالناسخ والمنسوخ من آيات القرآن الكريم . . . وغير ذلك من الأدوات التى يحتاج إليها المفسر . وسيأتى بيانها إن شاء الله .

وقد مرّ بنا الكلام عن نشأة التفسير بالرأى وتطوره عند الكلام عن الخطوة الخامسة للتفسير فى المرحلة الثالثة ص ٣٥-٣٨ فلا داعى لإعادته .

موقف العلماء من التفسير بالرأى

اختلف العلماء من قديم فى جواز التفسير بالرأى :

ففريق منهم قال بعدم جوازه حتّى لمن كان ملماً بكل العلوم والأدوات التى يحتاج إليها المفسر . وقالوا بوجوب انتهاء المفسر إلى ما ثبت

عن النبي ﷺ . وعن الذين شهدوا التنزيل من الصحابة . وعن الذين أخذوا عنهم من التابعين .

وفريق آخر من العلماء قال بجوازه لمن كان ملماً بكل العلوم والأدوات التي يحتاج إليها المفسر .

وقد استدل كل فريق بأدلة نوجزها فيما يلي :

أدلة القائلين بعدم الجواز :

١ - قالوا : إن التفسير بالرأى قول على الله بغير علم . والقول على الله بغير علم منهى عنه . فالتفسير بالرأى منهى عنه .

٢ - قالوا : إن الله تعالى قال لنبيه عليه الصلاة والسلام : «وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم» فقد أضاف البيان إليه . فعلم أنه ليس لغيره شيء من البيان لمعانى القرآن .

٣ - قالوا : ورد فى حديث رواه الترمذى مرفوعاً وحسنه «. . . ومن قال فى القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار (١) .

وورد فى حديث رواه الترمذى وأبو داود عن جندب أنه قال : قال رسول الله ﷺ : «من قال فى القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ» (٢) .

٤ - قالوا : ورد عن السلف من الصحابة والتابعين من الآثار ما يدل

(١) الترمذى فى أبواب التفسير ج ٢ ص ١٥٧ ط . الأميرية سنة ١٢٩٢ هـ .

(٢) المرجع السابق

على أنهم كانوا يعظمون تفسير القرآن ، ويتحرجون من القول فيه بآرائهم . فمن ذلك :

ما جاء عن أبى مليكة أنه قال : سئل أبو بكر الصديق - رضى الله عنه - فى تفسير حرف من القرآن فقال : أى سماء تظلنى ، وأى أرض تقلنى . وأين أذهب إذا قلت فى حرف من كتاب الله بغير ما أراد الله تبارك وتعالى (١) » ؟

وما جاء عن سعيد بن المسيب : أنه كان إذا سئل عن الحلال والحرام تكلم . وإذا سئل عن تفسير آية من القرآن سكت كأن لم يسمع شيئاً (٢) .

. . . وغير ذلك من الروايات التى تدل على تحرج كثير من السلف عن القول فى القرآن باجتهادهم .

أدلة القائلين بالجواز :

١ - قالوا : ورد فى القرآن نصوص كثيرة تدل على جواز التفسير بالرأى لمن هم أهل لذلك ، فمن ذلك :

قوله تعالى : «أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا» (٣) .

(١) مقدمة تفسير ابن جرير ج ١ ص ٧٨

(٢) المرجع السابق ج ١ ص ٨٥ - ٨٦ وقد روى الأثر بروايات مختلفة

(٣) سورة محمد ﷺ - الآية ٢٤

ومنه قوله تعالى : «كِتَاب أنزلناه إليكَ مبارَك لِيَدّبّروا آياته وليتذكّر أولو الألْبَاب »(١) .

ومنه قوله تعالى : «وَلَوْ رَدّوه إِلَى الرّسولِ وإِلَى أولِى الأمْرِ مِنهم لَعَلِمَه الذين يَسْتَنبِطونه مِنهم » (٢) .

٢ – قالوا : لوكان التفسير بالرأى غير جائز ماكان الاجتهاد جائزاً ، ولتعطل كثير من الأحكام ، وهذا باطل بيّن البطلان ؛ لأن باب الاجتهاد لا يزال مفتوحاً إلى اليوم والمجتهد مأجور ، والنبى — ﷺ — لم يفسر لنا جميع آيات القرآن ، ولم يستنبط لنا جميع أحكامه .

٣ – قالوا : إن الصحابة — رضوان الله عليهم — قالوا فى القرآن برأيهم ، واختلفوا فى فهم بعض نصوصه ، ومعلوم أنهم لم يسمعوا كل ما قالوه عن رسول الله ﷺ ،ولوكان القول بالرأى فى القرآن محظوراً لكانوا قد خالفوا ووقعوا فيما حرم الله ، وهذا ما نعيذ الصحابة من الوقوع فيه .

٤ – قالوا : إن النبى ﷺ دعا لابن عباس — رضى الله عنهما — بقوله : «اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل» فلوكان التأويل مقصوراً على السماع والنقل كالتنزيل ما كان هناك فائدة لتخصيص ابن عباس بهذا الدعاء ، فدل ذلك على أن التأويل الذى دعا به الرسول —

(١) سورة ص– الآية ٢٩ .

(٢) سورة النساء– الآية ٨٣

ﷺ — لابن عباس أمر آخر وراء السماع والنقل ، وهو التفسير بالرأى والاجتهاد .

هذه هى أدلة الفريقين ، وقد ردّ الفريق الأخير أدلة الفريق الأول ، ولا داعى — أبداً — إلى تحليل أدلة المانعين والمجيزين ؛ لأن ذلك قد يطول بنا ونحن فى موطن الإيجاز . وحقيقة الأمر هى :

أننا لو رجعنا إلى هؤلاء المتشددين فى التفسير ، وعرفنا سر تشددهم فيه ، ثم رجعنا إلى هؤلاء المجوزين للتفسير بالرأى . ووقفنا على ما شرطوه من شروط لابد منها لمن يتكلم فى التفسير برأيه . وحللنا أدلة الفريقين تحليلاً دقيقاً – لظهر لنا أن الخلاف لفظى لا حقيقى . وذلك أن الرأى قسمان :

قسم جارٍ على موافقة كلام العرب ومناحيهم فى القول . مع موافقة الكتاب والسنة . ومراعاة سائر شروط التفسير ، وهذا القسم جائز لا شك فيه . وعليه يحمل كلام المجيزين للتفسير بالرأى .

وقسم غير جارٍ على قوانين العربية . ولا موافق للأدلة الشرعية ، ولا مستوفٍ لشرائط التفسير . وهذا هو مورد النهى ومحط الذم . وهو الذى يرمى إليه كلام عمر – رضى الله عنه – إذ يقول «إنما أخاف عليكم رجلين : رجل يتأول القرآن على غير تأويله ، ورجل ينافس الملك على أخيه» فهذا ونحوه وارد فى حق من لا يراعى فى تفسير القرآن قوانين اللغة . ولا أدلة الشريعة جاعلاً هواه رائده ، ومذهبه قائده ؛ وهذا هو

الذى يحمل عليه كلام المانعين للتفسير بالرأى : قال ابن تيمية — بعد أن ساق الآثار عمن تحرج من السلف من القول بالتفسير — فهذه الآثار الصحيحة وما شاكلها عن أئمة السلف محمولة على تحرجهم من الكلام فى التفسير بما لا علم لهم به . فأما من تكلم بما يعلم من ذلك لغة وشرعا فلا حرج عليه ، ولهذا روى عن هؤلاء وغيرهم أقوال فى التفسير ولا منافاة ، لأنهم تكلموا فيما علموه . وسكتوا عما جهلوه . هذا هو الواجب على كل أحد ، فإنه كما يجب السكوت عما لا علم له به . فكذلك يجب القول فيما سئل عنه مما يعلمه ، لقوله تعالى : « لَتبَيِّننه لِلنَّاسِ وَلاَ تَكتمونه [١] . ولما جاء فى الحديث المروى من طرق : « من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار [٢] » .

هذا . وما دمنا قد ألمحنا إلى ضرورة الإلمام بالعلوم والأدوات التى يحتاج إليها المفسر برأيه حتى لا يجانب الصواب — نرى لزاما علينا أن نعرض لبيان هذه العلوم . ثم لبيان المصادر التى يجب على المفسر برأيه أن يرجع إليها . ثم للأمور التى يجب على المفسر أن يتجنبها فى تفسيره فنقول :

---

(١) سورة آل عمران ، الآية ١٨٧

(٢) مقدمة ابن تيمية فى أصول التفسير ص ٣١ ، ٣٢

العلوم التى يحتاج إليها المفسر

اشترط العلماء فى المفسر الذى يريد أن يفسر القرآن برأيه فيما لم يرد فيه أثر صحيح : أن يكون ملما بجملة العلوم التى يستطيع بها أن يفسر القرآن تفسيرا عقليا مقبولا . وجعلوا هذه العلوم بمثابة أدوات تعصم المفسر من الوقوع فى الخطأ . وتحميه من القول على الله بغير علم . وهذه العلوم هى :

١ — علم اللغة : لأن به يمكن شرح مفردات الألفاظ ومدلولاتها بحسب الوضع .

٢ — علم النحو : لأن المعنى يتغير ويختلف باختلاف الإعراب . فلابد من اعتباره .

٣ — علم الصرف : لأن به تعرف الأبنية والصيغ .

٤ — علم الاشتقاق : لأن الاسم إذا كان اشتقاقه من مادتين مختلفتين اختلف باختلافهما .

٥ . ٦ . ٧ — علوم البلاغة الثلاثة : (المعانى . والبيان . والبديع) :

فعلم المعانى : يعرف به خواص تراكيب الكلام من جهة إفادتها المعنى .

وعلم البيان : يعرف به خواص التراكيب من حيث اختلافها بحسب وضوح الدلالة وخفائها .

وعلم البديع : يعرف به وجوه تحسين الكلام .

٨ - علم القراءات : إذ بمعرفة القراءة يمكن ترجيح بعض الوجوه المحتملة على بعض .

٩ علم أصول الدين (وهو علم الكلام) : وبه يستطيع المفسر أن يستدل على ما يجب فى حقه تعالى . وما يجوز . وما يستحيل . وأن ينظر فى الآيات المتعلقة بالنبوات والمعاد . . . وما إلى ذلك نظرة صائبة .

١٠ علم أصول الفقه : إذ به يعرف كيف يستنبط الأحكام من الآيات ويستدل عليها . ويعرف الإجمال والتبيين . والعموم والخصوص . والإطلاق والتقييد . والأمر والنهى . وما سوى ذلك من كل ما يرجع إلى هذا العلم .

١١ علم أسباب النزول : إذ إن معرفة سبب النزول تعين على فهم المراد من الآية .

١٢ علم القصص : لأن معرفة القصة تفصيلا تعين على توضيح ما أجمل منها فى القرآن .

١٣ علم الناسخ والمنسوخ : وبه يعرف المحكم من غيره . ومن فقد هذه الناحية فربما أفتى بحكم منسوخ فيقع فى الضلال والإضلال .

١٤ - علم الحديث : ليستعين به على معرفة المجمل والمبهم . وغير ذلك مما جاءت السنة شارحة ومبينة له .

١٥ علم الموهبة : وهو علم يورثه الله تعالى من عمل بما علم .

وإليه الإشارة بقول الله عز وجل : «واتقوا الله ويعلّمكم الله»[١] وقوله عليه الصلاة والسلام : «مَنْ عَمِلَ بِمَا عَلِمَ ورَّثه الله عِلْمَ مالم يَعلَمْ [٢]» .

. . هذا وقد زاد بعضهم علم أحوال البشر ، وبعضهم علمى التاريخ وتقويم البلدان . وبعضهم نقص مما ذكرناه . وأيامّا كان الأمر فكل علم يتوقف عليه تفسير شيء من كتاب الله تعالى تجب على المفسر معرفته . وإلا كان غير مستوف لشروط التفسير .

مصادر التفسير لمن يقول فى القرآن برأيه

كل من يقول فى التفسير برأيه لا يجوز له بحال من الأحوال أن يهمل تفسير القرآن للقرآن . ولا ما صح من التفسير عن رسول الله ﷺ وأصحابه . ولو أن مفسراً أهمل شيئاً من ذلك ولم ينظر فيه ويأخذ به لعدّ من المفسرين بالرأى المذموم ؛ لأن رأيه حينئذ يكون معارضاً لما هو أقوى منه وأحق بالقبول . ولتفصيل ذلك نقول :

---

(١) سورة البقرة - الآية ٢٨٢

(٢) علق الحافظ العراقى على هذا الحديث فى تخرجه لأحاديث الإحياء للغزالى بقوله : رواه أبو نعيم فى الحلية من حديث أنس وضعفه ج ١ ص ١٢١ من الإحياء ط : نشر الثقافة الإسلامية سنة ١٣٥٦ هـ

إن المصادر التى يجب على المفسر أن يرجع إليها عند شرحه للقرآن حتى يكون تفسيره جائزاً ومقبولاً هى ما يلى :

أولاً : الرجوع إلى القرآن نفسه : وذلك بأن ينظر فى القرآن نظرة فحص مدقق . ويجمع الآيات التى فى موضوع واحد . ثم يقارن بعضها ببعضها الآخر ؛ فإن من الآيات ما أجمل فى مكان وفسر فى مكان آخر ، ومنها ما أوجز فى موضع وبسط فى موضع آخر . . . فيحمل المجمل على المفسر ، ويشرح ما جاء موجزاً بما جاء مسهباً مفصلاً . . . إلخ ، وهذا ما يسمونه تفسير القرآن بالقرآن ، فإن عدل عن هذا وفسر برأيه فقد أخطأ ، وقال برأيه المذموم .

ثانياً : النقل عن الرسول ﷺ مع الاحتراز عن الضعيف والموضوع فإنه كثير . فإن وقع له تفسير صحيح عن رسول الله ﷺ فليس له أن يعدل عنه ويقول برأيه ؛ لأن النبى ﷺ مؤيد من ربه ، وموكول إليه أن يبين للناس ما نزّل إليهم . فمن يترك ما صح عن النبى ﷺ فى التفسير إلى رأيه فهو قائل بالرأى المذموم .

ثالثاً : الأخذ بما صح عن الصحابة فى التفسير . ولا يغتر بكل ما ينسب لهم من ذلك ؛ لأن فى التفسير كثيراً مما وضع على الصحابة كذباً واختلاقاً . فإن وقع على قول صحيح لصحابى فى التفسير فليس له أن يهجره ويقول برأيه ؛ لأنهم أعلم بكتاب الله ، وأدرى بأسباب التنزيل ؛ لما شاهدوه من القرائن والأحوال ، ولما اختصوا به من الفهم التام والعلم

الصحيح ولا سيما علماؤهم وكبراؤهم .

ثم هل للمفسر أن يعدل عن أقوال التابعين فى التفسير . أو لابد له من الرجوع إلى أقوالهم ؟ خلاف سبق لنا أن عرضنا له فلا داعى لإعادته .

رابعاً : الأخذ بمطلق اللغة . لأن القرآن نزل بلسان عربى مبين . ولكن على المفسر أن يحترز من صرف الآية عن ظاهرها إلى معان خارجة محتملة يدل عليها القليل من كلام العرب . ولا توجد غالباً إلا فى الشعر ونحوه ويكون المتبادر خلافها : روى البيهقى فى الشعب عن مالك – رضى الله عنه – أنه قال : « لا أوتى برجل غير عالم بلغة العرب يفسر كتاب الله إلا جعلته نكالاً » .

خامساً : التفسير بالمقتضى من معنى الكلام . والمقتضب من قوة الشرع . وهذا هو الذى دعا به النبى ﷺ لابن عباس حيث قال : « اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل » والذى عناه على رضى الله عنه بقوله – حين سئل : هل عندكم عن رسول الله ﷺ شىء بعد القرآن ؟ – « لا . والذى فلق الحبة وبرأ النسمة إلا فهم يؤتيه الله عز وجل رجلاً فى القرآن » . ومن هنا اختلف الصحابة فى فهم بعض آيات القرآن . فأخذ كل بما وصل إليه عقله . وأداه إليه نظره .

الأمور التى يجب على المفسر أن يتجنبها فى تفسيره

هناك أمور يجب على المفسر أن يتجنبها فى تفسيره حتى لا يقع فى الخطأ ويكون ممن قال القرآن برأيه الفاسد . وإليك هذه الأمور :

١ – التهجم على بيان مراد الله تعالى من كلامه مع الجهالة بقوانين اللغة ، وأصول الشريعة ، وبدون أن يحصل العلوم التى يجوز معها التفسير .

٢ – الخوض فيما استأثر الله بعلمه : وذلك كالمتشابه الذى لا يعلمه إلاّ الله . فليس للمفسر أن يتهجم على الغيب بعد أن جعله الله تعالى سرّا من أسراره وحجة على عباده .

٣ – السير فى الهوى والاستحسان : فلا يفسر بهواه ، ولا يرجح باستحسانه .

٤ – التفسير المقرر للمذهب الفاسد : بأن يجعل المذهب أصلاً والتفسير تابعاً فيحتال فى التأويل حتّى يصرفه إلى عقيدته . ويردّه إلى مذهبه بأى طريق أمكن . وإن كان غاية فى البعد والغرابة .

٥ – التفسير مع القطع بأن مراد الله كذا وكذا من غير دليل ، وهذا منهى عنه شرعاً ، لقوله تعالى : « . . . وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَالاَ تَعْلَمُونَ [1] » .

---

(١) سورة البقرة ، الآية ١٦٩

المنهج الذى يجب على المفسر أن ينهجه فى تفسيره

على كل من يتعرض لتفسير كتاب الله تعالى أن ينهج فى تفسيره منهجاً يراعى فيه القواعد الآتية . بحيث لا يحيد عنها ، ولا يخرج عن نطاقها ، وهذه القواعد هى ما يأتى :

١ – مطابقة التفسير للمفسّر ، من غير نقص لما يحتاج إليه فى إيضاح المعنى . ولا زيادة لا تليق بالغرض ولا تناسب المقام ، مع الاحتراز من أن يكون التفسير فى زيغ عن المعنى . وعدول عن المراد .

٢ – مراعاة المعنى الحقيقى والمعنى المجازى . فلعل المراد المجازى فيحمل الكلام على الحقيقة أو العكس .

٣ – مراعاة التأليف والغرض الذى سيق له الكلام ، والمؤاخاة بين المفردات .

٤ – مراعاة التناسب بين الآيات : فيبين وجه المناسبة ، ويربط بين السابق واللاحق من آيات القرآن . حتى يوضح أن القرآن لا تفكك فيه ، وإنما هو آيات متناسبة يأخذ بعضها بحجز بعض .

٥ – ملاحظة أسباب النزول ؛ فكل آية نزلت على سبب ، فلابد من ذكره بعد بيان السبب ، وقبل الدخول فى شرح الآية .

٦ – بعد الفراغ من ذكر المناسبة وسبب النزول – يبدأ بما يتعلق

بالألفاظ المفردة : من اللغة ، والصرف ، والاشتقاق ، ثم يتكلم عليها بحسب التركيب ، فيبدأ بالإعراب ، ثم بما يتعلق بالمعانى ، ثم البيان ، ثم البديع ، ثم يبين المعنى المراد ، ثم يستنبط ما يمكن استنباطه من الآية فى حدود القوانين الشرعية .

٧ – على المفسر أن يتجنب ادعاء التكرار فى القرآن ما أمكن : نقل السيوطى عن بعض العلماء أنه قال : «مما يدفع توهم التكرار فى عطف المترادفين نحو (لَا تبقِى وَلَا تَذَر[1]) ، (صَلَوَاتٌ مِن رَبهِم وَرَحْمَة[2]) وأشباه ذلك ، أن يعتقد أن مجموع المترادفين يحصل معنى لا يوجد عند انفراد أحدهما ؛ فإن التركيب يحدث معنى زائداً . وإذا كانت كثرة الحروف تفيد زيادة المعنى فكذلك كثرة الألفاظ[3] »

٨ – وعلى المفسر – أيضاً – أن يتجنب كل ما يعتبر من قبيل الحشو فى التفسير : كالخوض فى ذكر علل النحو ، ودلائل مسائل أصول الفقه ، ودلائل مسائل الفقه ، ودلائل مسائل أصول الدين ؛ فإن كل ذلك مقرر فى تآليف هذه العلوم . وإنما يؤخذ ذلك مسلماً فى علم التفسير دون استدلال عليه .

٩ – وكذلك على المفسر أن يتجنب ذكر ما لا يصح من أسباب

(١) سورة المدثر – الآية ٢٨

(٢) سورة البقرة – الآية ١٥٧

(٣) الإتقان ج ٢ ص ١٨٥ – ١٨٦

النزول ، وأحاديث فضائل السور (التى وضعها أبو عصمة نوح ابن مريم) وكذلك القصص الموضوع . والأخبار الإسرائيلية . فإن هذا مما يذهب بجمال القرآن . ويشغل الناس عن التدبر والاعتبار .

١٠ – على المفسر – بعد كل هذا – أن يكون يقظاً فطناً عليماً بقانون الترجيح حتى إذا ما كانت الآية محتملة لأكثر من وجه يرجح ويختار[1] .

منشأ الخطأ فى التفسير بالرأى

يرجع الخطأ فى التفسير بالرأى – غالباً – إلى جهتين حدثتا بعد تفسير الصحابة والتابعين ؛ فإن الكتب التى يذكر فيها كلام هؤلاء صرفا غير ممزوج بغيره كتفسير عبد الرزاق . وعبد بن حميد . وغيرهما لا يكاد يوجد فيها شىء من هاتين الجهتين . بخلاف الكتب التى جدّت بعد ذلك فإن كثيراً منها – كتفاسير المعتزلة والشيعة – مملوءة بأخطاء لا تغتفر . حملهم على ارتكابها نصرة المذهب والدفاع عن العقيدة .

أما هاتان الجهتان اللتان يرجع إليهما الخطأ فى الغالب فهما ما يلى :

الجهة الأولى : أن يعتقد المفسر معنى من المعانى ، ثم يريد أن يحمل ألفاظ القرآن على ذلك المعنى الذى يعتقده .

الجهة الأخرى : أن يفسر القرآن بمجرد ما يسوغ أن يريده بكلامه

(١) انظر قانون الترجيح فى الإتقان ج ٢ ص ١٨٢ نقلاً عن البرهان للزركشى .

من كان من الناطقين بلغة العرب ، وذلك بدون نظر إلى المتكلم بالقرآن ، والمنزل عليه ، والمخاطب به :

فالجهة الأولى مراعى فيها المعنى الذى يعتقده المفسر من غير نظر إلى ما تستحقه ألفاظ القرآن من الدلالة والبيان .

والجهة الأخرى مراعى فيها مجرد اللفظ ، وما يجوز أن يريد به العربى من غير نظر إلى ما يصلح للمتكلم به ، والمخاطب ، وسياق الكلام [١] .

التعارض بين التفسير المأثور والتفسير بالرأى

أولاً : لا يعقل تعارض بين التفسير المأثور والتفسير بالرأى المذموم ؛ لأن التفسير بالرأى المذموم ساقط من أول الأمر ، وخارج عن محيط التفسير بمعناه الصحيح .

ثانياً : التفسير بالرأى المحمود هو الذى يعقل التعارض بينه وبين التفسير المأثور . وهذا هو الذى نريد أن نتكلم فيه فنقول :

إن الصور العقلية التى يحصل فيها التعارض بين التفسير المأثور والتفسير بالرأى المحمود هى :

١ — أن يكون التفسير العقلى قطعياً والمأثور قطعياً كذلك ، وهذه

(١) راجع تفصيل كل من الجهتين فى مقدمة ابن تيمية فى أصول التفسير ص ٢٠ — ٢٤

صورة فرضية . لأنه لا يعقل تعارض بين قطعى وقطعى . ومن المحال أن يتناقض الشرع والعقل .

٢ — أن يكون أحدهما قطعياً . والآخر ظنيا ، وفى هذه الصورة يقدم القطعى على الظنى إذا تعذر الجمع . ولم يمكن التوفيق . أخذاً بالأرجح . وعملا بالأقوى .

٣ — أن يكون أحدهما ظنيا والآخر ظنيا كذلك . وفى هذه الصورة إذا أمكن الجمع بين المأثور والعقلى وجب حمل النظم الكريم عليهما . وإن تعذر الجمع بينهما قدم التفسير المأثور عن النبى ﷺ إذا ثبت من طريق صحيح . وكذلك يقدم ما صح عن الصحابة . وأما ما يؤثر عن التابعين فإن كان الراوى له معروفا بالأخذ عن أهل الكتاب قدم التفسير العقلى . وإن لم يعرف بالأخذ عن أهل الكتاب لجأنا إلى الترجيح : فإن تأيد أحدهما بسمع أو استدلال رجحناه على الآخر . وإن اشتبهت القرائن . وتعارضت الأدلة والشواهد توقفنا فى الأمر . وعلينا أن نؤمن بمراد الله تعالى . ولا نتهجم على تعيينه . وينزل ذلك منزلة المجمل قبل تفصيله . والمتشابه قبل تبيينه .

أقسام التفسير بالرأى

بيّنا - فيما تقدم - موقف العلماء من جواز التفسير بالرأى . وقلنا : إن فريقاً منهم قال بالجواز . وفريقاً آخر قال بعدم الجواز . وسقنا أدلة الفريقين ، وانتهينا إلى أن الخلاف لفظى لا حقيقى ، لأن الرأى - كما قلنا - قسمان :

قسم جار على موافقة كلام العرب ومناحيهم فى القول . مع موافقة الكتاب والسنة . ومراعاة سائر شروط التفسير . وهذا القسم جائز لا شك فيه . وعليه يحمل كلام المجيزين للتفسير بالرأى .

وقسم غير جارٍ على قوانين العربية . ولا موافق للأدلة الشرعية . ولا مستوف لشرائط التفسير . وهذا هو مورد النهى ومحط الذم ، وهو الذى يحمل عليه كلام المانعين للتفسير بالرأى .

وحاصل ما تقدم : أن التفسير بالرأى قسمان : ممدوح جائز ومذموم غير جائز .

وقد بدأ التفسير بالرأى الجائز مبكراً لم يخرج عن قانون اللغة ، ولم يتخط حدود الشريعة . وظل محتفظاً بهذه السمة إلى أن قامت الفرق المختلفة . وظهرت المذاهب الدينية المتنوعة . ووجد من العلماء من يحاول نصرة مذهبه والدفاع عن عقيدته بكل وسيلة وحيلة . وكان القرآن هو هدفهم الأول الذى يقصدون إليه جميعاً . كل يبحث فى القرآن ليجد

فيه ما يقوى رأيه ويؤيد مذهبه ، وكل واجد ما يبحث عنه ولو بطريق إخضاع الآيات القرآنية لمذهبه ، والميل بها مع رأيه وهواه ، وتأويل ما يصادفه منها تأويلاً يجعلها غير منافية لمذهبه ولا متعارضة معه : ومن هنا بدأ التفسير بالرأى المذموم ، واستفحل الأمر إلى حد جعل القوم يتسعون فى حماية عقائدهم ، والترويج لمذاهبهم بما أخرجوه للناس من تفاسير حملوا فيها كلام الله على وفق أهوائهم ، ومقتضى نزعاتهم ونحلهم ! . .

ولقد خلّف لنا كل من أصحاب التفسير بالرأى المحمود ، وأصحاب التفسير بالرأى المذموم كتبا فى التفسير ، وإليك أهم هذه الكتب :

أهم كتب التفسير بالرأى المحمود

من المقطوع به : أن المكتبة الإسلامية احتفظت لنا بالكثير من كتب التفسير بالرأى المحمود ، وهأنذا أُذكر بعضاً منها تيسر لى الاطلاع عليه ، ووقفت على منهجه فى التفسير .

ولا يفوتنى أن أنبه إلى أن هذه الكتب التى وقع عليها اختيارى يتجه كل منها إلى اتجاه معين ، وتغلب عليه ناحية خاصة من نواحى التفسير وألوانه : فمنها ما تغلب عليه الصناعة النحوية ، ومنها ما تغلب عليه النزعة الفلسفية والكلامية ، ومنها ما تطغى فيه الناحية القصصية الإسرائيلية ؛

ومنها غير ذلك ، ولكن الجميع يدخل - فى جملته - تحت شىء واحد ، هو : (التفسير بالرأى الجائز) .

أما هذه الكتب فهى :

١ - مفاتيح الغيب : للفخر الرازى ، المتوفى سنة ٦٠٦ هـ .

٢ - أنوار التنزيل وأسرار التأويل : للقاضى البيضاوى ، المتوفى سنة ٦٩١ هـ .

٣ - مدارك التنزيل وحقائق التأويل : لأبى البركات النسفى ، المتوفى سنة ٧٠١ هـ .

٤ - لباب التأويل فى معانى التنزيل : لعلاء الدين الخازن ، المتوفى سنة ٧٤١ هـ .

٥ - البحر المحيط : لأبى حيان الأندلسى ، المتوفى سنة ٧٤٥ هـ .

٦ - غرائب القرآن ، ورغائب الفرقان : لنظام الدين النيسابورى - المتوفى سنة ٧٢٨ هـ [1] .

٧ - تفسير الجلالين : لجلال الدين المحلىّ المتوفى سنة ٧٩١ هـ ، وجلال الدين السيوطى المتوفى سنة ٩١١ هـ .

٨ - السراج المنير : للخطيب الشربينى ، المتوفى سنة ٩٧٧ هـ .

٩ - إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم : لأبى السعود

(١) لم يعرف تاريخ وفاته على التحقيق ، وما ذكر منقول عن كشف الظنون ، وكثيراً ما يخطئ فى مثل هذا .

العمادى المتوفى سنة ٩٨٢ هـ .

١٠ - روح المعانى : لشهاب الدين الألوسى ، المتوفى سنة ١٢٧٠ هـ .

أهم كتب التفسير بالرأى المذموم

ومن المقطوع به - أيضاً - أن المكتبة الإسلامية احتفظت لنا بالكثير من كتب التفسير بالرأى المذموم . وهذه الكتب جرى التفسير فيها على هوى أصحابها ونزعاتهم المذهبية . فما من صاحب مذهب كتَبَ فى التفسير إلاّ نظر إليه من خلال عقيدته . وقد تعسف بعضهم فى الفهم . ففسر النصوص القرآنية وأخضعها لتكون له لا عليه . حتى خرج بذلك خروجاً ذريعاً إلى القول فى القرآن بالهوى والغرض .

وسأذكر بعض هذه الكتب مكتفياً من كل مذهب بكتابين . دون أن أخوض فى الكشف عما فيها من الخرافات . تاركاً للقارئ الكريم أن يرجع هو إلى هذه التفاسير ليرى ما فيها من العجب العجاب وإليك هذه الكتب :

(أ) من تفاسير المعتزلة :

١ - تنزيه القرآن عن المطاعن : للقاضى عبد الجبار - المتوفى سنة ٤١٥ هـ .

٢ – الكشاف عن حقائق التنزيل ، وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل : للزمخشرى المتوفى سنة ٥٣٨ هـ

(ب) من تفاسير الشيعة الإمامية الاثنى عشرية :

١ – مجمع البيان لعلوم القرآن : لأبى على الفضل بن الحسن الطبرسى ، المتوفى سنة ٥٣٨هـ وهو أهم كتب الشيعة ، وأكثرها اعتدالاً .

٢ – الصافى فى تفسير القرآن الكريم : لملاّ محسن الكاشى المتوفى فى أواخر القرن الحادى عشر الهجرى ، ولم أقف على تحديد وقت وفاته .

(جـ) من تفاسير الشيعة الزيدية :

١ – فتح القدير : لمحمد بن الشوكانى المتوفى سنة ١٢٥٠ هـ .

٢ – تفسير عطية بن محمد النجرانى الزيدى المتوفى سنة ٦٦٥ هـ – لم أقف عليه وقد ذكره صاحب الفهرست وقال : وقد قيل عنه : إنه تفسير جليل ، جمع فيه صاحبه علوم الزيدية [1] . (مع ملاحظة أن الزيدية أعدل فرق الشيعة على الإطلاق) .

(د) من تفاسير الخوارج الأباضية :

١ – هميان الزاد إلى دار المعاد : لمحمد بن يوسف إطْفَيَش المتوفى سنة ١٣٣٢ هـ

(١) الفهرست لابن النديم ص ٢٣ – ط : الرحمانية سنة ١٣٤٨ هـ

٢ – تفسير هود بن محكم الهوارى من علماء القرن الثالث الهجرى . وهذا التفسير متداول بين الأباضية فى المغرب . وقد اطلعت على بعض أجزائه الأربعة لدى الشيخ إبراهيم أطفيش – رحمه الله .

٣ – التفسير الموضوعى

حقيقة التفسير الموضوعى :

نريد بالتفسير الموضوعى : تناول جانب واحد من جوانب القرآن الكريم بالدراسة والبحث . وغالباً ما تكون الدراسة لموضوع معين متناولة له من كل جوانبه . مستوعبة لكل ما فيه من جزئيات ربما لا يتاح تناولها فى التفسير العام . وغالباً ما يجرى هذا اللون من التفسير على أيدى رجال برعوا فى نواح معينة من العلوم . فاستهواهم حبهم للدراسة . وشغفهم بالبحث – أن يتناولوا من موضوعات القرآن ما يتصل بالجانب العلمى الذى برعوا فيه :

فابن القيم – مثلاً – أفرد كتابا من مؤلفاته للكلام عن أقسام القرآن سماه : (التبيان فى أقسام القرآن) .

وأبو عبيدة : أفرد كتابا للكلام عن مجاز القرآن .

والراغب الأصفهانى : أفرد كتابا فى مفردات القرآن .

وأبو جعفر النحاس : أفرد كتابا فى الناسخ والمنسوخ من القرآن .
وأبو الحسن الواحدى : أفرد كتابا فى أسباب نزول القرآن .
وأبو بكر الجصاص : أفرد كتاباً فى أحكام القرآن . . . وغير هؤلاء كثير ممن قصدوا إلى موضوع خاص فى القرآن ، يجمعون ما تفرق منه ويفردونه بالدراسة والبحث .

٤ – التفسير الإشارى

حقيقة التفسير الإشارى :

التفسير الإشارى : هو تأويل آيات القرآن الكريم على خلاف ما يظهر منها بمقتضى إشارات خفيفة تظهر لأرباب السلوك ، ويمكن التطبيق بينها وبين الظواهر المرادة .

ويرتكز التفسير الإشارى على رياضة روحية يأخذ بها الصوفى نفسه حتى يصل إلى درجة تنكشف له فيها من سجف العبارات هذه الإشارات القدسية ، وينهلّ على قلبه من سحب الغيب ما تحمله الآيات من المعارف السبحانية .

هذا ، ولا يرى الصوفى أن التفسير الإشارى هو كل ما تحتمله الآية من المعانى ، بل يرى أن هناك معنى آخر تحتمله الآية ، ويراد منها أولاً وقبل كل شىء ، ذلك هو المعنى الظاهر الذى ينساق إليه الذهن قبل غيره .

وقد اشترط العلماء لصحة المعنى الإشارى شرطين أساسيْن :

أولهما : أن يصح على مقتضى الظاهر المقرر فى لسان العرب ، بحيث يجرى على المقاصد العربية .

والآخر : أن يكون شاهد له نصاً أو ظاهراً فى محل آخر يشهد لصحته من غير معارض .

وإذا نحن ذهبنا نستعرض أقوال القوم فى معانى القرآن الإشارية على ضوء هذين الشرطين وجدنا الكثير منها يمكن أن يكون من قبيل التفسير الإشارى المقبول ، وكثير منها – أيضاً – من قبيل التفسير الإشارى المرفوض ، وكبرى المشاكل أنها منسوبة إلى رجال من أهل العلم لهم مكانة علمية ودينية لدى جمهور المسلمين ! . . .

وتوضيحاً لما تقدم نذكر مثالاً لكل من التفسير الإشارى المقبول ، والتفسير الإشارى المرفوض :

المثال الأول للمقبول : ما جاء فى تفسير قوله تعالى : « فَلاَ تَجْعَلُوا للهِ أَنْدَادَاً وأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١) » من قول سهل التسترى « فلا تجعلوا لله أنداداً » أى أضداداً ، فأكبر الأضداد : النفس الأمارة بالسوء ، المتطلعة إلى حظوظها بغير هدى من الله » (٢) .

المثال الأول للمرفوض : ما جاء فى تفسير قوله تعالى « إن أول بيت

(١) سورة البقرة – الآية ٢٢

(٢) تفسير القرآن العظيم للتسترى ص ١٤

وصع للناس » من قول سهل التسترى – أيضاً – : « أول بيت وضع للناس بيت الله عز وجل بمكة ، هذا هو الظاهر ، وباطنها : الرسول ، يؤمن به من أثبت الله فى قلبه التوحيد من الناس[١] » .

أهم كتب التفسير الإشارى

من العلماء من عنى فى تفسيره بالتفسير الظاهر ، وتعرض للتفسير الإشارى بقدر ، كما فعل النيسابورى ، والألوسى .

ومنهم من غلبت عليه ناحية التفسير الإشارى ، ومع ذلك فهو يتعرض – أحياناً – للتفسير الظاهر ، كما فعل سهل التسترى .

ومنهم من وجه همه كله إلى التفسير الإشارى ولم يحم حول المعانى الظاهرة ، كما فعل أبو عبد الرحمن السلمى .

ونكتفى هنا بأن نذكر أهم الكتب التى وجه أصحابها فيها كل عنايتهم أوجلها نحو التفسير الإشارى ، وإليك أهم هذه الكتب :

١ – تفسير القرآن العظيم : لسهل التسترى : المتوفى سنة ٢٨٣ هـ وقيل سنة ٢٧٣ هـ – يذكر أحياناً المعانى الظاهرة .

٢ – حقائق التفسير : لأبى عبد الرحمن السلمى ، المتوفى سنة ٤١٢ هـ – لا يتعرض فيه للتفسير الظاهر .

(١) المرجع السابق ص ٤١

٣ – عرائس البيان فى حقائق القرآن : لأبى محمد الشيرازى المتوفى سنة ٦٠٦ هـ – لم يتعرض فيه للتفسير الظاهر .

٥ – التفسير العلمى

حقيقة التفسير العلمى :

التفسير العلمى هو التفسير الذى يحكّم الاصطلاحات العلمية فى عبارات القرآن ، ويجتهد فى استخراج مختلف العلوم والآراء الفلسفية منها .

وقد وقع هذا النوع من التفسير ، واتسع القول فى احتواء القرآن كل العلوم ، ما كان منها ومايكون ، فالقرآن فى نظر أصحاب هذه الطريقة – يشمل – إلى جانب العلوم الدينية الاعتقادية والعملية – سائر علوم الدنيا على اختلاف أنواعها ، وتعدد ألوانها .

ويظهر لنا أن الإمام الغزالى – رحمه الله – كان – إلى عهده – أكثر من استوفى بيان هذا اللون من تفسير القرآن الكريم ، وأهم من أيده وعمل على ترويجه فى الأوساط العلمية الإسلامية .

كذلك نجد العلامة جلال الدين السيوطى ينحو منحى الإمام الغزالى فى القول بالتفسير العلمى ، ويقرر ذلك بوضوح وتوسع فى كتابه (الإتقان) وفى كتابه (الإكليل فى استنباط التنزيل) مستنداً إلى قوله

تعالى : «مَا فَرّطْنا فِى الْكِتَابِ مِنْ شَىء»(١) وقوله «ونَزّلنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تبياناً لكلّ شَىءٍ(٢) »

إنكار الشاطبى للتفسير العلمى :

ويظهر لنا - على حسب ما قرأنا - أن زعيم المعارضة للتفسير العلمى - قديماً - هو الفقيه الأصولى أبو إسحق الشاطبى . وقد قرر ذلك وأيده فى كتابه (الموافقات) ورد استدلال السيوطى بما ذكرنا من آيات القرآن بحملها على ما يتعلق بالتكاليف والتعبد . أو بحمل الكتاب - فى الآية - على اللوح المحفوظ .

واعتقادى : أن الحق مع الشاطبى ؛ لأن ما ساقه من الأدلة لتصحيح مدّعاه أدلة قوية لا يعتريها الضعف . ولا يتطرق إليها الخلل . ويصحح الشاطبى رأيه فيقول : «إن السلف الصالح - من التابعين ومن يليهم - كانوا أعرف الناس بالقرآن وبعلومه . وما أُودعه ، ولم يبلغنا أنه تكلم أحد منهم فى شئ من هذا المدعى . . . ولو كان لهم فى ذلك خوض ونظر لبلغنا منه ما يدلنا على أصل المسألة ، إلا أن ذلك لم يكن ؛ فدل على أنه غير موجود عندهم . وذلك دليل على أن القرآن لم يقصد فيه تقرير لشىء مما زعموا . نعم . تضمن علوماً من جنس علوم العرب .

(١) سورة الأنعام - الآية ٣٨

(٢) سورة النحل - الآية ٨٩ .

أو ما ينبنى على معهودها مما يتعجب منه أولو الألباب . ولا تبلغه إدراكات العقول الراجحة دون الاهتداء بإعلامه . والاستنارة بنوره . أمّا أن فيه ما ليس من ذلك فلا (١) » . وهذا الذى قرره الشاطبى هو ما يجب أن نقول به . وإلا كان القرآن مصدراً لجوامع الطب . وضوابط الفلك . ونظريات الهندسة . وقوانين الكيمياء . وما إلى ذلك من العلوم المختلفة . وبذلك يقع الشك فى عقيدة المسلمين نحو القرآن الكريم . وذلك لأن قواعد العلوم وما تقوم عليه نظريات لاقرار لها ولا بقاء . فرب نظرية علمية قال بها عالم اليوم . ثم رجع عنها بعد زمن قليل أو كثير ؛ لأنه ظهر له خطؤها . وكم بين نظريات العلم قديمه وحديثه من تناف وتضاد : فهل يعقل أن يكون القرآن محتملاً لجميع هذه النظريات والقواعد العلمية على ما بينها من تناف وتضاد ؟ وإذا كان هذا معقولاً فهل يعقل أن يصدق مسلم بالقرآن بعد هذا ، ويكون على يقين بأنه كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ؟ .

ليعلم أصحاب هذه الفكرة أن القرآن الكريم غنى عن أن يعتز بمثل هذا التكلّف الذى يوشك أن يخرج به عن هدفه الإنسانى الاجتماعى فى إصلاح الحياة ، ورياضة النفس ، والرجوع بها إلى الله ، وحسبهم ألا يكون فى القرآن نصّ صريح يصادم حقيقة علمية ثابتة ، وحسب القرآن أنه يمكن التوفيق بينه وبين ما جدّ ويجدّ من نظريات وقوانين علمية

(١) الموافقات ج ٢ ص ٧٩ - ٨٠ .

تقوم على أساس من الحق ، وتستند إلى أصل صحيح .

. . وبعد فإذا كان التفسير العلمى قد لقى من قدامى العلماء معارضين ومؤيدين -- فإنه قد لقى - أيضاً - ولا يزال يلقى من محدثيهم معارضين ومؤيدين .

ولقد نجد من بين المؤيدين لهذه النزعة - بل على رأسهم - المرحوم الشيخ طنطاوى جوهرى فى كتابه المسمى : (الجواهر فى تفسير القرآن الكريم) .

ولقد نجد فى الجانب الآخر كثيراً من المعارضين أمثال : الشيخ محمد مصطفى المراغى ، والشيخ محمود شلتوت ، والشيخ أمين الخولى ، رحمهم الله رحمة واسعة .

الخاتمة

. . وبعد فلم يزل القرآن الكريم غضاً طرياً . ولم يزل التفسير بحراً لا ساحل له . ومن أى النواحى أتيته وجدت فيه الدرر الغوالى ، ومهما جدّ المفسرون وأجهدوا أنفسهم فى البحث عن حكمه وأسراره - فلن يبلغوا غاية ، ولن يقفوا عند نهاية ، ولا يزال المشتغلون بالتفسير على اختلاف ميولهم ، وتعدد مشاربهم - يَثَورون القرآن الكريم ؛ ليكشفوا عما حواه من علوم ، وما اشتمل عليه من هداية . وستظل طائفة منهم اليوم وغداً . وإلى أن تقوم الساعة - يعملون فى حقل التفسير أملاً فى أن يتكشف لهم من خلال آياته جديد . وسوف يصلون - بإذن الله - إلى الكشف عن جديد ، ولكنه - مهما كان عظمه وخطره - قطرة من مكنون علم الله القائل «وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً» [1]

وإذا كان التفسير فى الماضى قد تعددت مذاهبه . وتنوعت مناهجه . واختلفت اتجاهاته ومقاصده - فإنه فى حاضرنا لم يخرج عن هذا المنهج ؛ وإنما تناول كل ألوان التفسير : تناول التفسير بالرأى المحمود ، وتناول التفسير بالرأى المذموم ، وتناول التفسير الموضوعى ، وتناول التفسير الصوفى ، وتناول التفسير العلمى . . وعلى الجملة فالتفسير فى حاضرنا

(١) سورة الإسراء - الآية ٨٥

مازال موصولاً بالتفسير فى الماضى . ولا يكاد ينفك عنه إلا نادراً . وربما فى الصورة فقط ، ذلك لأن الأولين بذلوا جهداً كبيراً فى التفسير . ومهّدوا الطريق أمام المشتغلين به . وتناولوا القرآن آية آية بالدراسة الواسعة المستفيضة . وأكاد أقول : لا أرى المتأخرين يقولون إلاّ معادا من القول مكرورا .

نعم هناك سمات بارزة للتفسير فى عصرنا الحاضر لها أصولها فى الماضى .

ولكنها برزت فى حاضرنا بصورة تستدعى النظر :

هذه السمات هى :

١ – إبراز الجانب الاجتماعى فى القرآن الكريم . ورائد هذا الاتجاه فى التفسير هو الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، عليه رحمة الله .

٢ – إبراز الجانب العلمى فى القرآن الكريم . ورائد هذا الاتجاه فى التفسير هو الشيخ طنطاوى جوهرى . ومن بعده كثير انتموا لهذا الاتجاه . وألفوا فيه ما هو مقبول وما هو مرفوض .

٣ – إبراز الجانب الفكرى . وغالب ماكتب فى ذلك شطحات فكرية . تشبّع بها أصحابها . فحاولوا إخضاع القرآن لها . ولكن هذه المحاولة برزت فاشلة ! . . وهناك إلى جوار ذلك محاولات لما يسمى (تفسير القرآن بالقرآن) للأخ الفاضل عبد الكريم الخطيب .

وهناك تفسير حديث يسمى (التفسير العصرى القديم) للأستاذ :

عبد الفتاح الإمام الدمشقى . مطبوع فى ثلاثة مجلدات .

وهناك تفسير ثان حديث يسمى (التفسير الحديث) للأستاذ / محمد عزة دروزة ، وقد رتبه على حسب ترتيب نزول القرآن – مطبوع فى اثنى عشر جزءاً .

وهناك تفسير ثالث حديث يسمى (بيان المعانى) للسيد « عبد القادرمَلاَّ حويش آل غازى العانى » ، وقد رتبه – أيضاً – على حسب ترتيب نزول القرآن – مطبوع فى ستة مجلدات .

وهذه المحاولات والمؤلفات تعتبر من أهم ماكتب فى التفسير ، وهى بحاجة إلى دراسة شاملة مستوعبة حتى نستطيع الحكم لها أو عليها .

ولعل ضيق المجال يشفع لى فى أنى اختصرت البحث ، وضيقت دائرة الكلام عن علم التفسير ، ولم أتناول بعض جوانبه التى أشرت لها بدراسة مستفيضة ، وحسبى أنى ألقيت الضوء على أجَلَ علم عرفته البشرية : كيف بدأ ؟ وكيف تطور ؟ وإلى أى شىء صار ؟

والله – تعالى – أسأل أن يلهمنا السداد ، وأن يأخذ بيدنا إلى طريق الخير والرشاد ؛ إنه بالإجابة جدير ، وعلى كل شىء قدير ، وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين . ،

دكتور محمد حسين الذهبى